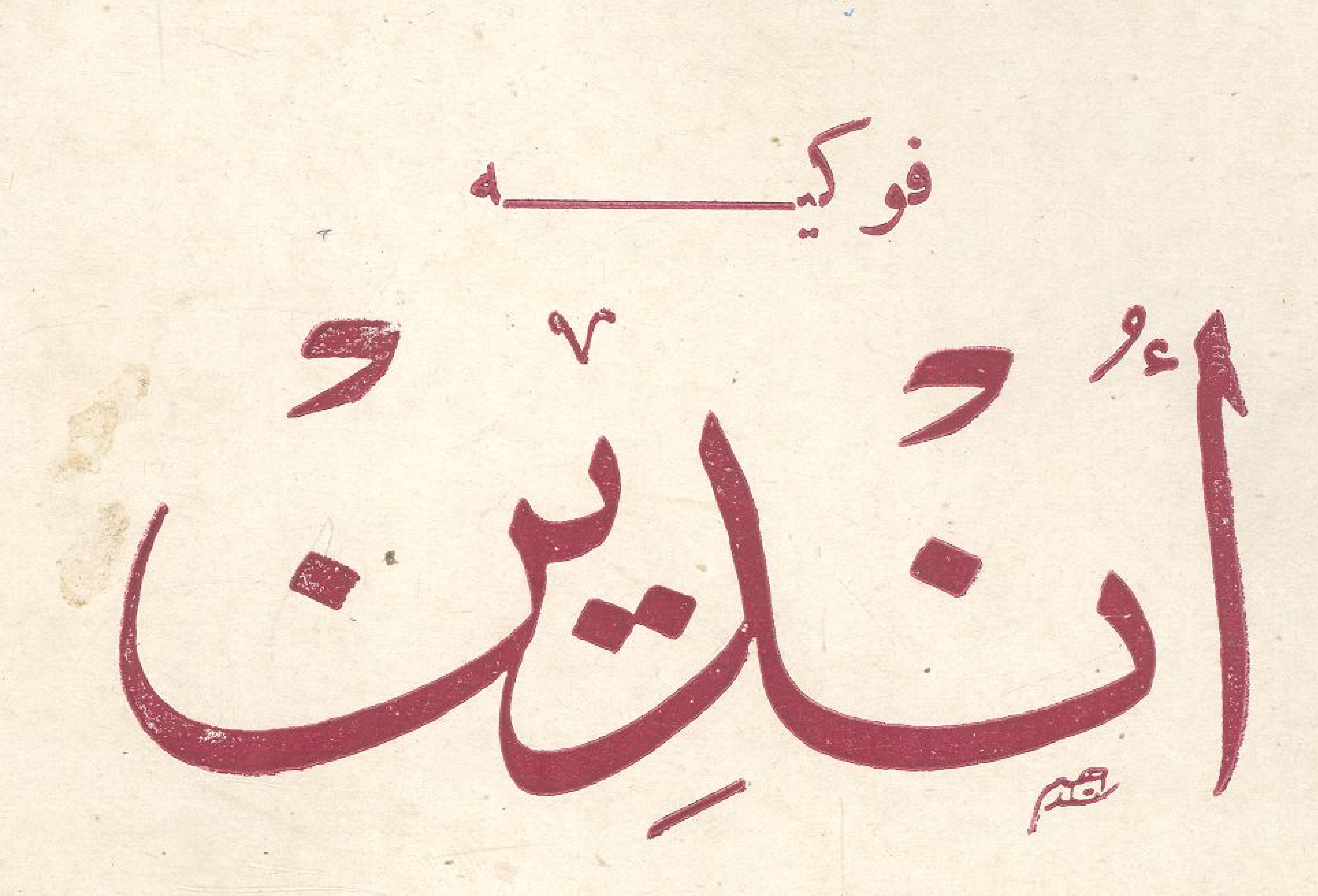





- ٣ -

فوكيه



ترجمة

عبد الرحمن بدوي

الثمن ٢٠ م

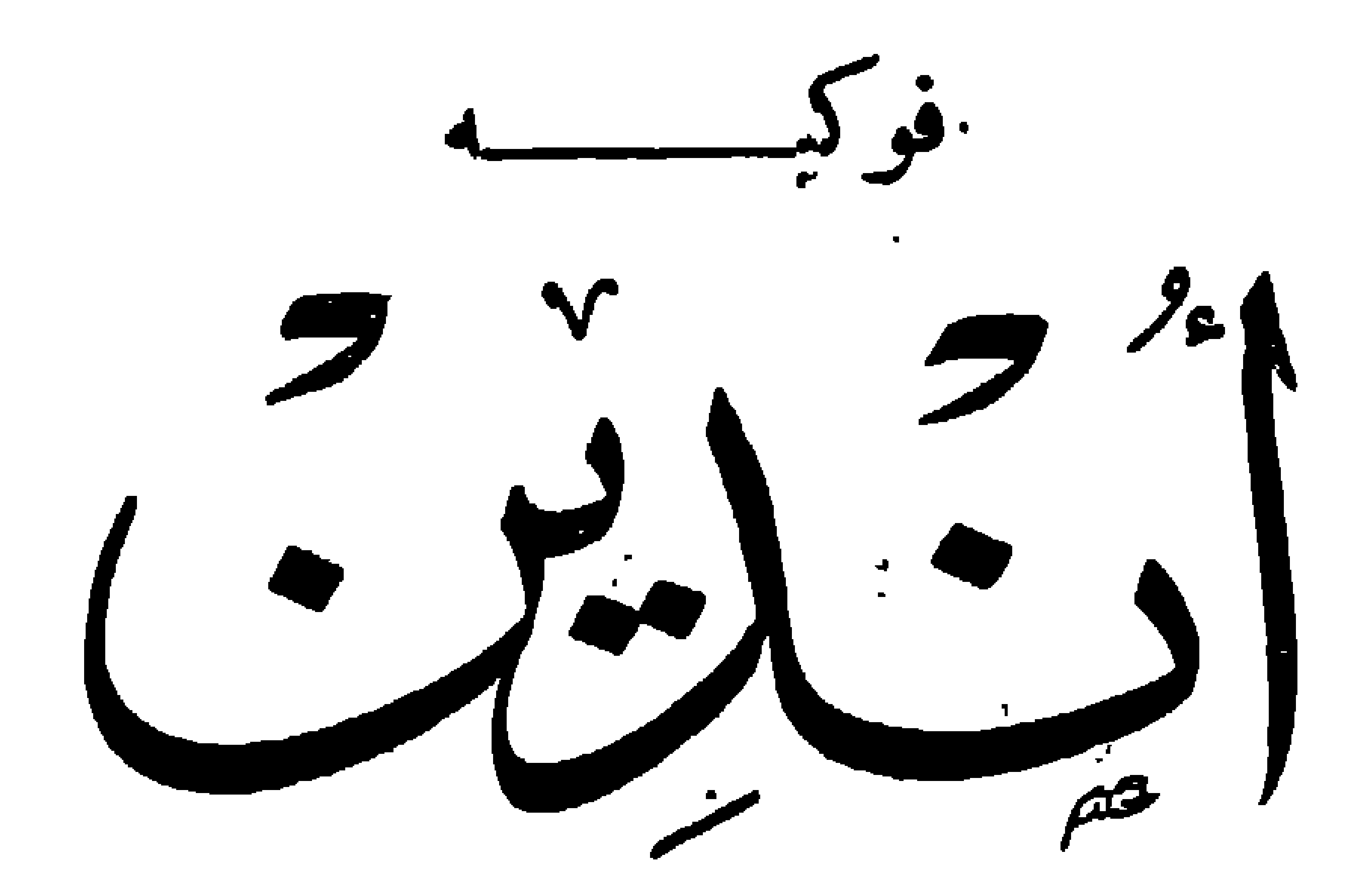



الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ عدلي باشا بالقاهرة

الروائع المائة

— ٢ —

فوكيه



ترجمة

عبد الرحمن بدوي

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة
١٩٤٤

مطبعة الاعتماد

العنوان الأصلى :

F. H. K. de la Motte-Fouqué : **Undine**

ظهر للمرة الأولى : ١٨١١

تصدير عام

« لم يكد النومُ يُرَنِّق فى عينى حتى رأيت فيما يرى الوسنان أنى بإزاء عالم قد تغيرت أسارير وجهه : فالأشجار قد التوت وترنّحت ، والينابيع الوقورة والصخور العاتية تبدت فى ابتسام ، والأزهار انبسطت وتفتحت عن ألوان زاهية غريبة ، وتراءت كأنها تستيقظ من سُبات عميق . فتولتنى الدهشة من رؤية العالم بأسره وفى كل أجزائه قد التهب فى شعور من فيض السرور ، ومن أن نوراً جديداً قد أصاب النائمين القدماء ، نافذاً إلى كل مخادعهم التى كانت قبلُ محكمة الإغلاق ، كيما يدعوهم ويبعث اليقظة فيهم . إلى أين يريد أن يقتادهم هذا النورُ ؟ هكذا قلت لنفسى . . . لكن حدث فُجاءةً أن طُرِد الموت ، وكلّ القوى المضادة للحياة ، خارج الطبيعة كلها ؛ وأنشأ الزمان يزيد فى سرعة مسار كل العجلات : . . بقوة وانطلاق . فتدافعت الأنهار بعنف جارف لا يصدها شىء نحو الأودية ؛ وتناثرت قطع من الصخر كى تصير حية كالأزهار ؛ وعلَت الأودية الخُضْر وهبطت من جديد معاً . وتواثبت كل قوى الخلق وانتفخت ؛ وفى شرايين الطبيعة سرت عُصارة هائجة تصّاعد وتهبط فى مجرى مهتاج ؛ والأشجار تجلّت عن براعمها وأزهرت ، وفى لحظة واحدة تبدت الثمار ، وفى التوّ تساقطت من الأغصان ، ورأيت أوراقها تَصَوّح . هنالك ران عليها

ربيعٌ مفاجىء علاها من جديد ورفّ بأنواره الزاهية فيها . ثم طارد الربيع والصيف والخريف والشتاء بعضُها بعضاً ؛ وجلجلت الأنهار وتجمدت على هيئة ثلج تكوّن فُجاءة ، بعدها استأنف التيار المندفع العنيف سيره من جديد . وهكذا قلقت الطبيعة وجزعت على نفسها ، وسمت بنفسها فى نفسها ؛ وأخيراً ازدهرت براعم الزمان ، وبإشارة قوية ، حرّرت السرمدية المغلولة ، وإذا بعنصر النور ، هذا العنصر الأزلى القديم ، يسود من جديد فوق الهاوية ، وذابت كل الأرواح وفنيت فى روح واحدة » .

تلك الرؤيا الرائعة التى تبدّت لتيك ، هى بعينها رؤيا كل رومنتيكى حالم . ومَنْ مِنهم لم يقض حياته كلها فى حلم طويل؟ حلم بما فى الكون من قُوى طبيعية قوية العُرام شديدة البأس ، ولكنها مستسرّة فى الأعماق ؛ وهى فى غليان دائم ، وتوثب مستمر ، تريد أن تعلو على نفسها أبداً ؛ لهذا تنزع دائماً نحو الانتقال من حالة اللاشعور التى ترقد فيها ، إلى حالة الشعور ، هذا الشاطىء الباهر النور . ذلك أن الطبيعة كلها كائن حى : لا فارق فى هذا بين الانسان والحيوان ، بين الحى والجماد ، بين الحجر والشجر . فالنهر المنطلق فى تياره المندفع المتواثب ، لا يقل حياةً عن هذا الليث المنقض على فريسته ؛ والشجر المتصاعد بساقه وأغصانه يريد أن يبلغ عنان السماء ، لا يمتاز منه كثيراً هذا الرجل المتوثب نحو العلاء الروحى ؛ والجبل فى رزانته

وفى صمته الراسخ الرائع ، يحاكى ذلك الشيخ الوقور الذى أبهظت كاهله السنون ، وتجلت هامته بيضاء بياض ذلك الثلج الرقاف المتوّج لقمة الجبل . كل ما فى الطبيعة حى إذن ؛ ففيم تختلف إذن الكائنات ؟ إنها تختلف فى درجة الشعور أو الوعى . فبعضها كالحجر بكل أنواعه يكون فى الدرجة الدنيا من الشعور ، وإن كانت له مع ذلك حياة كأقوى وأعنف ما تكون الحياة ؛ والانسان يمثل الدرجة العليا لشعور الطبيعة بذاتها . وبين الحجر والانسان سُلم من الرقى فى الشعور . والطبيعة إذن فى فلسفة الرومنتيك الحيوية حيوان هائل .

ورائد الرومنتيك القديم فى هذه النزعة هو يعقوب بيمه ، الذى فرّق بين طبيعتين : إحداهما أزلية أبدية غير مرئيــة ، والأخرى فانية مرئية ، هى الكون الظاهر . والطبيعة الأولى قد صدرت عن الله مباشرة ، وتكونت من اجتماع كل الماهيات والعناصر الداخلة فى تركيب الأشياء ، والتى بتنوع تركيباتها ، تلد الكائنات المختلفة . فقد كانت كل هذه القوى الأصيلة مختلطة فى الماهية العليا ، أعنى الذات الإلهية ، ولكن إرادة الله لما تأملت نفسها فى مرآة الحكمة الأزلية ، ورأت كمال جوهرها اللامتناهى ، أحبت نفسها ، ومن هذا العشق انقسمت على نفسها إلى قسمين متقابلين : أحدهما النور ، وهو الكامل ، والآخر الظلمة ، وهو الناقص . ثم انقسم كل من هذين القسمين إلى أقسام ، وهكذا باستمرار . وفوق هذه الأقسام كلها الجواهر السبعة ،

التى تكوّن الأساس المشترك للعالم كله : وهى الشوق ، والانبساط ، والغضب ، والنار الإلهيــة ، والنور ، والرنين ، والصورة . والطبيعة الفانية تمثل الطبيعة الباقية تمام التمثيل : فما يوجد فى الأولى سرمدياً ، يوجد فى الأخرى زمنياً . فالأجســام المحيطة بنا ، والنجوم والجبال والأنهار ، ليست هذه كلها غير صدورات وتجليات للعالم الروحانى ؛ وعلى الرغم مما بها من اختلاف ، فإنها جميعاً صادرة عن مبدأ واحد ، وتشارك فى جوهر واحد . « فإذا رأيت نجماً أو حيواناً أو نباتاً أو أى مخلوق آخر ، فحذار أن تظن أن الخالق لهذه الأشياء كلها يسكن بعيداً عن هنا ، فوق النجوم الزاهية . إنما هو فى الخليقة نفسها . فإذا تأملت الأعماق ، والأفلاك ، والأرض وما علاها ، رأيت إلهك ، وأنت نفسك توجد به وتحيا فيه » («الفجر» Aurora ، ف ٢٣ ، § ٣ ، ٤ ، ٦) . والانسان يمثل مملكة الله ومملكة الطبيعة الأزلية الأبدية ، ومملكة الطبيعة الظاهرة الفانية. فهو يمثل الألوهية بما فيه من نفس أو روح ، هى بعينها النور الإلهى فينا ؛ و يمثل الطبيعة الأبدية بجوهر جسمه وماهيته ؛ كما أنه بمادة هذا الجسم يمثّل الطبيعة الظاهرة الفانية ، والجن طبقة تشتمل على الطبقتين الأخريين ، دون الأولى ؛ فهى كائنات بلا نفس .

والرومنتيك قد تلقوا مقــالة بيمه هذه كمذهب فلسفى يريدون أن يعارضوا به مذهب أصحاب نزعة التنوير الذين يرجعون كل معرفة إلى العقل . ثم قدمها لهم فى صورة أحكم

منطقاً وأدق تفصيلا وأعمق تحليلا فيلسوف اعتبر منـذ البدء فيلسوف الرومنتيك الأكبر ، ألا وهو شلنج . وهذا قد كان على اتصال بحركة الرومنتيك منذ نشأتها ، فكان ممثلها الفلسفي الأول . وهو قد أعطى ملخصاً لهذه الفلسفة في قصيدة نشرها بمجلة الرومنتيك « أتينيؤم » Athenäum ، فقال : «إن القوى التي تجعل المعادن تنبثق ، والأزهار تزكو مُزْهرة في الربيع ، تنشد في كل مكان، وتسعى بكل وسيلة ، إلى الاتجاه نحو النور. وجهدها لا يذهب سُدى ؛ وها هي ذي تنزع نحو الأعالي ؛ وتناضل بأقدامها وأيديها ضد العنصر المُعَادِي ؛ وتتعلم كيف تغزو المكان جزءاً جزءاً . وأخيراً تصل إلى المعرفة . إن روح العملاق ، السجينة في قزَم جميل الصورة سرىّ الخلق ، اسمه الانسان ، قد وجدت نفسها بنفسها . وابتداءً من الكفاح الأوَّلى للقوى المظلمة ، حتى تدفق العصارات الأولى للحياة ، حيث تجرى القوة في القوة وتسيل المادة في المادة ، وحيث النظرة الأولى ترف ، والبرعم الأول يتفتح ، حتى نصـل إلى الشعاع الأول للنور المولود حديثاً ، والذي يضيء خلال الليل كأنها خليقـة تجددت ، مضيئاً السماء كما يضيء الليل والنهار ، من خلال أعين الكون التي لا تحصى، نازعاً نحو القوة الشّابة للإيمان العميق، حيث الطبيعة وقد استعادت شبابها تخلق نفسها من جديد — في هذا كله ليس ثمة غير قوة واحدة ، ودَفْعَة واحدة ، وحياة واحدة ، وإيقاع واحد في السَّوْرة والوقوف » .

أما الكتاب والشعراء الرومنتيك فقد بحثوا عن خير أدوات التعبير عن هذه الفلسفة فوجدوها فى القصة الأسطورية . ذلك أن القصة الأسطورية ، كما يقول نوفالس ، «هى كالصورة حُلْم بلا اتساق : مزيج من الأشياء والأحداث الخارقة ، ومَثَلُها مَثَل تخييلة موسيقية ، أو تلاوات انسجامية لقيثارة أيولية ؛ أو الطبيعة نفسها » — أو كما يقول مرة أخرى : « إن القصص الأسطورية ليست غير أحلام بهذا العالم الأصيل (العالم المعقول ، أو العالم السرمدى الخفىّ ، أو الطبيعة الخالدة غير المرئية عند بيمه) الذى هو فى كل مكان ، ولا يوجد فى مكان . وأسمى ما فينا من قوى ، تلك التى ستأتى يوماً كأنها الجنيات لكى تشبع رغباتنا ، هى آلهات فنٍ تعيننا بالذكريات العذبة خلال أدائنا لرسالتنا القاسية » .

ذلك أن القصة الأسطورية ، كما لاحظت ريكاردا هوخ ، قد حققت عند الرومنتيك غايتين : الأولى أنهـا تدور حول اللامعقول والخارق ، مما حاربه أصحاب نزعة التنوير ، وعمل على تمجيده الرومنتيك ؛ والثانية أن القصة الأسطورية ، فى صورتها الساذجة الطفولية ، تفيد فى تقديمها للإنسان حكمة الحياة ، أو فى أن تكون مجالاً للهجوم الساخر . ونستطيع أن نضيف إلى هذا أيضاً أنها مغرقة فى الخيال ، مما يسمح بالتعبير عن هذه الفلسفة الحيوية التى عرفناها فى حرية وانطلاق . إذ كيف يتيسر لك أن تعبّر عن وحدة الطبيعة بكل ما فيها من كائنات ،

إذا سرت وفقاً لما تقتضيه القصة الواقعية ؟ مثل هذه الأفكار لا يمكن أن يعبر عنها إلا بالرموز ؛ والتعبير بالرموز هو لغة الأساطير ؛ فالقصة المتضمنة لمثل تلك الأفكار لا بد أن تكون إذن أسطورية . والطابع الأسطورى فيها لا يقصد لذاته ، بل للغاية التى يرمى إليها الانسان : ذلك أن الأسطورة لا تقصد مطلقاً لذاتها ، على الرغم مما فيها من جمال فى ذاتها ؛ انما ترمى أولا وقبل كل شىء إلى مغزى ومدلول تعبر هى عنه فى صورة عيانية محسوسة ، شأن كل فن خالق ممتاز . وليس فى هذا أى انقاص من قدرها ، كأثر فنى ، على الرغم مما قد يثيره هنا أصحاب نزعة « الفن للفن » — وهى كلمة لا معنى لها ، لأنها تناقضٌ فى الحدود فاضح — من اعتراض . ولسنا نقصد من هذا أن قيمة الأسطورة ، من الناحية الفنية ، فى المعانى التى تطلب منها وتدل عليها ؛ فتلك قيمة فكرية أو أخلاقية أو علمية ، أما قيمتها من الناحية الفنية ففى طريقة تعبيرها عن هذه المعانى . وهذا هو الأصل فى كل أسطورة : فهى أداة للتعبير ، ورمز دالّ على معنى ، وقيمتها فى كيفية التعبير والدّلالة . والفن ما هو ، إن لم يكن أداة للتعبير فى صور عيانية قائمة عن معان تتسم بسيما الجمال ؟ وكل ما فى الكون خليق أن يتسم بهذه السيماء ، والأمر إنما يتوقف بعد على وجهة النظر .

والينابيع التى تستقى منها القصة الأسطورية متنوعة ، ولكن أهمها اثنان : الأساطير ، والحكايات الشعبية . أما

الأساطير فلما فيها من رمزية ، وأما الحكايات الشعبيه فلما فيها من براءة وسذاجة وميل إلى التصديق السخىّ . والفارق بين الأسطورة وبين الحكاية الشعبية هو أن الأولى ترمى دائماً إلى معنى عميق ويقصد بها تفسير مظهر من مظاهر الوجود ، ولذا كانت الشكل الأوّلى للفكر العلمى والفلسفى ، وهى الوسيلة الوحيدة الباقية لدى الإنسان حينما يُعْوزه التعبير الفعلى الواضح ؛ وما فيها من خوارق ومعجزات لايقصد به لذاته ، بل لتحقيق تلك الغاية . وعلى العكس من ذلك نجد الحكاية الشعبية لا تقصد من وراء الخوارق واللامعقول شيئاً آخر وراءهما ، لأنها تتجه إلى الخيال الذى يريد أن يتسلى ويفرّج عن نفس صاحبه . ولذا يلاحظ فى الحكاية الشعبية أن تكون مليئة بالمغامرات الشائقة الجذابة ، وهى مغامرات يطلب منها دائماً أن تنتهى بنهاية سعيدة : فينتصر الطيب ، ويعاقب الخبيث ، ويعيش الأبطال أخيراً فى سعادة وهناء وينتجوا خير الأبناء ، كما نقول نحن فى آخر كل حكاياتنا الشعبية . فاذا كان لها غاية غير التلهية والتخلية ، فتلك هى أن تقدم لوناً من الحكمة الشعبية الساذجة : فهى إذن ذات غاية أخلاقية تهذيبية ، بينما الأسطورة غايتها علمية تفسيرية . ولما كانت القصة الأسطورية تستهدف كلتا الغايتين ، فانها لابد آخذة من كلا الينبوعين .

والتفاوت بين القيم فى القصص الأسطورية هو فى مقدار الأخذ من كلا الينبوعين . فالممتاز منها حقاً هو الذى يغلب

جانب الأسطورة على جانب الحكاية الشعبية نظراً إلى رقى الأولى على الثانية وزيادة عمقها ؛ أما تلك التى تعتمد فى الجانب الأكبر منها على الحكاية الشعبية ، فتنحل دائماً إلى أن تكون وسائل للتلهية والمسامرة الجوفاء . وهذا لا ينتسب إلى الفن الرفيع فى شيء ، إن كان ينتسب بعد إلى الفن أدنى انتساب . فعلى الفنان الممتاز إذن أن يتجه إلى الأساطير ، وألا يستلهم من القصص الشعبية إلا ما يصلح منها ، بواسطة الفن ، أن يتحول إلى أسطورة . وهذا يصلح أن يكون مقياساً دقيقاً لقيمة القصص التى من هذا الباب .

أما طريقة الأداء فى هذا النوع من القصص فكثيراً ما تشبه فى بعض أجزائها القصص الشعبية . فتبدأ غالباً بهذه العبارة المسجلة فى الحكايات الشعبية: « يُحكى أن . . . » ، « لقد كان فيما مضى من الزمان . . . » ، « انصرمت أحقاب متطاولة . . . » إلى آخر هذه الاستهلالات التى ترمى خصوصاً إلى بيان قدم القصة من ناحية ، مما يضفى عليها طابع السحر الملازم لكل ما هو قديم ، ومما يجعل تصديقها أيسر ؛ ومن ناحية أخرى ، ولغاية مضادة للغاية الأولى ، إلى التنبيه على أن القصة مما يحكى ويروى، وليست إذن واقعية ، أو لا يقدمها صاحبها على أنها كذلك .

كما أنها يجب أن تنتهى بنتّيجة محدودة واضحة . فهى من القصص « المُقفَل » الذى يكون فى ذاته دائرة كاملة ، لا من

هذا النوع من القصص « المفتوح » الذى ينتهى بعلامة استفهام ، صريحة أو ضمنية . وهذا لأن المقصود منها كما قلنا أن تعبر عن معنى ، وأن يكون لها مغزى واضح ؛ ولن يتحقق هذا بترك القصة تفنى فى نهاية من ضباب الاستفهام والغموض والحيرة ، بل بتحديد نهاية الأشخاص . فإن اعتمدت على حكاية شعبية كانت النهاية سعيدة فجوزى الطيب عن إحسانه ، وعوقب الشرير عن إساءته ، وعاش الأبطال فى هناء وولدوا أبناء . وإن قامت على أسطورة ، انتهت بعرض واضح للمعنى الذى قصد التعبير عنه فيها .

أما الأشخاص فأظهر طابع فيهم هو الطابع الأسيان ، إذ حياتهم فريسة لكثير من المصائب والكوارث والمغامرات والخصومات ؛ وذلك لإثارة الخيال من ناحية ، كما يبدو خصوصاً فيما يقوم منها على أساس الحكايات الشعبية ؛ ومن ناحية أخرى لأن الوجود بطبعه أسيان ، وإرادة الحياة إرادة عمياء هوجاء مندفعة فى غير غاية واضحة ، والقدر أو المصير يلهو بالإنسان ، وكأنه لعبة لم يجد خيراً منها للتسلى والترويح عن نفسه ، وإن كان فى ذلك ما فيه من تعذيب لهذا الكائن البائس المسكين ، كما يظهر هذا غالباً فى القصص المعتمدة على الأساطير .

وقصص تيك من أشهر القصص التى تمثل هذا الطابع الأسيان إلى درجة مفزعة جداً ؛ ولا يفوقها فى هذه الناحية إلا قصص ا . ت . هوفمن ، ثم قصص إدجار ألن پو . فأنت لاتقرأ

إحدى هذه القصص الأسطورية إلا وتمتلىء نفسك بأشد أنواع القلق والفزع والمخاوف ؛ وجوها جو ملىء بالغموض والأسرار والمتناقضات التي لا تقبل الصلح ولا المسالمة . ومن شأن هذا أن يجعل القصة تحيا فى نوع من الظلام الواضح أو الوضوح المظلم ، فلايكاد المرء يدع القصة من يده حتى يتنهّد تنهّداً عميقاً . وهذا الطابع الأسيان المريع يُنْشَد هنا لذاته من أجل الزيادة فى التشويق ، واستثارة الخيال الجامح ، وتنبيه كل المشاعر . كما ينشد عند المتازين منهم من أجل بيان ما يشتمل عليه الوجود من تعارض وتناقض فى نسيجه ، وما يقتضيه هذا من شقاء بالنسبة إلى كل مشارك فيه يحاول أن ينغمس ، ولو قليلا، فى أتونه الملتهب أو محيطه الصخّاب .

ومنهج القَص فيها يكشف عن سذاجة وبراءة كهاتين اللتين نراهما فى قصص الأطفال ؛ لأن المؤلف نفسه يستحيل إلى مربية عجوز ساذجة تروى فى براءة طاهرة ألواناً من الخوارق ، من خيال يتدفق فى بكارة وغزارة . لذا نشعر فى جوها بشىء من الحنان الرقيق الفطرى الذى نحس به فى كل ما يعبَق بعطر الطفولة الأبدية ؛ وهو جو صحى يجدد قوى النفس ، خصوصاً فى عصور الانحلال أو التقدم المادى الآلى الهائل ، لأن ما فيه من نَضرة وغضاضة وطراوة كفيل بإشاعة قوى وثّابة مستطلعة متجدّدة فى النفس الكليلة المنهوكة . ولكن ليس معنى هذا أن يلجأ الكاتب إلى الأساليب المبتذلة المستخدمة فى الحكايات

الشعبية ، أو إلى اللغة الدارجة . فالكاتب الممتاز حقاً هو الذى يحكم الصنعة و يتقن العبارة ، و يتأنق فى الأسلوب ، دون أن يكون فى ذلك أدنى ثقل أو تزمُّت واختناق فى انطلاق الرواية بزقة ورشاقة . فأسطورة «ملوزينه» قد صاغها جيته من جديد وأخرجها بعنوان « ملوزينه الجديدة » ونشرها سنة ١٨١٦ فى « كتاب الجيب للمرأة » ، ثم أدخلها من بعد فى الكتاب الثالث من « سنوات تنقل فلهم ميستر » . وفى هذه الصياغة لم يشأ جيته أن يستعير شيئاً من اللغة الشعبية ، أو أن يدع قواعد الفن تُختَرق أدنى اختراق: من حيث إحكام القَصِّ ، وانسجام الأحداث ، وتناسب الأجزاء . أما تيك فقد رواها بطريقة مهلهلة ، لا تخلو من التهكم والتهريج ، ثم من النغمة الشعبية المبتذلة.

ومنطق الأحداث فى سرد القصة الأسطورية يجب أن يكون مزيجاً من الاحتمال واللامعقولية فلا يجب أن يكون كله منطق اللامعقول ، و إلا ابتعدت القصة عن الواقع بعداً لا يجعلها تحمل أى طابع مؤثر أو إنسانى ، مع أن الطابع الإنسانى يجب أن يكون الصفة السائدة فى كل أثر روحى ؛ ولهذا فإن على الكاتب أن يحتاط فى الأخذ بالخوارق ، فلا يلجأ إليها إلا نادراً، و بالدرجة التى تكون فيها ضرورية من أجل إجراء الحوادث ، واستنباط العبرة ، وتفسير الظواهر وفقاً للفكرة السائدة التى يراد بثها فيها . ولذا كان الاحتمال عنصراً من عناصر هذا النوع ، و إن كان بدرجة أقل كثيراً مما تشترطه القصة الواقعية بأنواعها.

فالإسراف فى الخوارق إنما هومن شأن قصص الأنبياء والقديسين، لأنها أبعد ما يكون، بل لا تنتسب فى شىء إلى عالمنا الأرضى هذا ؛ بينا عالم القصة الأسطورية لازال هو العالم الذى نحيا به ، ما دام هوالعالم الإنسانى بكل ما فيه من منطق عِلّى لسير الأحداث . كما قد يغتفر هذا الإسراف كذلك فى الحكايات الشعبية ، لأنها تقصد إلى إثارة الخيال ؛ والإكثار من الخوارق يحقق هـذا ؛ لذا كانت الخوارق عندها غاية ، لا وسيلة كما هى الحال فى القصة الأسطورية . فإذا كانت فى هذه وسيلة ، فلا داعى للعمل بها إلا بالقدر الذى يسمح لنا بتحقيق تلك الغاية .

وهذا بدوره يتصل بمسألة الواقعية فى الأشخاص المكوّنة للقصة الأسطورية. فعلى الرغم من كل مابها من طابع أسطورى، فإن من الواجب أن يكون فيهم الطابع الإنسانى ، الإنسانى جداً ، ظاهراً بكل جلاء ، أيًّا ما كان فهمنا لمعنى الإنسانى : فقد نرتفع به حتى لا نكاد نفرق بينه وبين الآلهـى ، أو ننزل به إلى مستوى الجنىّ ، وقد يكون وسطاً على هيئة مَلَك . ذلك لأن كل أثر روحى يجب أن يصدر عن نزعة إنسانية ، وأن يرتد إلى الإنسان فى نهاية كل مطاف .

وكل تلك الخصائص ، إلى جانب الفلسفة الطبيعية التى أشرنا إليها فى مستهل هذا الحديث ، نجدها ظاهرة كل الظهور فى الأقصوصة التى بين أيدينا الآن ، أقصوصة « أندين » .

أما الفلسفة الطبيعية الحيوية فيها فيدين بها فوكيه

لشخصيتين كان لهما أكبر الأثر فى تشكيل الجو الروحى العام لحركة « العاصفة والاندفاع » ثم لحركة الرومنتيك فى ألمانيا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، حتى ليمكن أن يعتبرا بحق الممثلين الهاديين لفلسفتهم الطبيعية فى أبهى صورها وأعمقها . ونعنى بهما : يعقوب بيمه ، وأورليوس بومباستس ، أو فيليب ثاوفرسطس من هوهنهيم ، المعروف باسم پَرَتْسِلْسوس الذى ولد فى ماريه أينْسيدلن فى سويسرة سنة١٤٩٣ ، وتوفى سنة١٥٤١ فى مدينة زَلْتسبورج . وكلاهما متأله صوفى ، من هذا النفر الغريب من الروحيين الذين يظهرون كثيراً على فترات متباعدة من التاريخ : مثل بَلَنْياس الطوانى فى الحضارة اليونانية ، وجابر بن حيان فى الحضارة العربية ، وپرتسلسوس هذا فى الحضارة الأوربية . وهم مزيج من العلم والتصوف والفلسفة ، تحدوه نزعة حارّة إلى الكشف عن القوى المستسرّة فى الطبيعة من أجل إخضاعها لسلطان الإنسان ، أو استخدام كل القوى الخفية فى الطبيعة الانسانية مما لا يحفل به العلم وتُجْفِل منه الفلسفة . ويعقوب بيمه كان الملهم الأكبر للرومنتيك أجمعين على السواء ، حتى الفلاسفة منهم مثل شلنج . وقد أوردنا بعض الملامح العامة لمذهبه وكيف تأثر به الرومنتيك؛ فنكتفى هذا القدر ، مشيرين إلى كتاب فوكيه نفسه عنه .

ولنمض إلى پرتسلسوس الذى كان أثره فى الأقصوصة التى بين يدينا أكبر ، إذ كان أثراً مباشراً . ففوكيه نفسه قد اعترف — فى

إجابته على ناقد تساءل عن المصدر الذى استقى منه أقصوصته — بأنه قد أخذها مباشرة من كتاب لپرتسلسوس عنوانه : «حول الحوريّات والسِّلْفاوات والأقزام والسمندرات وغيرها من الأرواح» . ومذهب پرتسلسوس العام يتلخص فى أنه يرى أن ثمة بين الله والإنسان والطبيعة بعضاً من القوى الفعالة التى تحدث من الآثار ما يروعنا جماله كلّ يوم ، والإنسان على اتصال بكل هذه القوى المستسرة فى الكون ، فإذا اتحد بإحداها ووفقاً لما اتحد به منها ، يأتى من الأفعال أنواعاً متفاوتة : فقد يكون ذا سلطان هائل بفضل تسخيره لهذه القوى فى إجابة رغباته ومطامحه ؛ وقد يكون ، على العكس من ذلك ، فى حال بائسة قد تنتهى به إلى الهلاك لو أنه وقع تحت تأثير إحدى القوى الشريرة ، أو لو أنه خالف عن أمر قوى خيّرة ، فإنه لا بد ملاق عقابه منها . والظواهر التى نشهدها فى العالم الخارجى ليست إلا مظاهر لتلك القوى الحية الفعالة فى الطبيعة . وهو يقسم الكل إلى « الكون الأكبر » و « الكون الأصغر » ، والأول يمثلُ الطبيعة عموماً ، والثانى يمثلُ الانسان ، وكلاهما يشبه الآخر تمام المشابهة ، والواحد منهما يكرر ويردد ما يجرى فى الآخر . ويرى أن لكل شىء — أيا ما كانت درجته فى سلم الموجودات — قوة روحية تهيىء له أن يفعل ، ثم توجهه إلى حيث يجب أن يتجه ، من أجل تنمية كل ما ينطوى عليه من بذور حيوية ، وشكول جوهرية . والمادة عموماً تتكون من

عناصر أربعة ، ولـكن الانسان يضمّ كل هذه العنـاصر فى داخله ، باعتباره هو الـكون الأصغر . ومن شأن هذا التركيب أن يجعله عل صلة وثيقة بالطبيعة كلها .

ويميز پرتسلسوس بين نوعين من الجسم : نوع مادى ، ومنه الجسم الإنسانى ، ونوع نورانى يتكون من مادة ألطف ، هو جسم الأرواح العنصرية أو الحيـّة الذى يشبه مع ذلك جسم الإنسان من حيث المظهر والصورة . وهذه الأرواح العنصرية ذوات عقل ، ولـكن ليست لها نَفْس . والنفس هى الخالدة ، أما العقل فليس بخالد . ولهذا فإن هذه الأرواح تفنى ، يوم الحساب ، فى المادة ، عائدة إلى عناصرها الأولى . غير أن هذا ليس حظهـا جميعاً ، فإن الأرواح الأُنثوية منها تستطيع أن تحصل على نفس ، وذلك بالاتحاد التام مع جسم إنسانى ، بواسطة الزواج المخلص . ولكن إذا قسا الزوج على إحدى الحوريات المائية التى اتحدت به وانتهرها بالقرب من الماء ، فانها لا بد أن تعود إلى حياتها العنصرية . وهى بهذا لا تموت ، بل تظل تحيا حياتها فى قصورها البلّورية تحت أمواج المحيط . حتى إذا ما رأت الزوج الذى تركته قد خانها فتزوج بأخرى ، فإنها تعود إليه كى تقتله ، لأنه سيكون قد خان زوجته الحقيقية ، التى لا تزال تربطها به رابطة الزواج على الرغم من الفراق ، لأن الزواج يظل مع ذلك قائماً بالرغم من مغادرتها له .

وهذه الأرواح العنصرية أو الجن تنقسم إلى فصائل تبعاً

للمكان الذى تقطن فيه : فالأرواح التى تسكن الماء تسمى الحوريات (أو النيمفاوات) ، وتلك التى تحيا فى الهواء تدعى سِلفاوات أو أحراشيات ، والتى تقطن الأرض تدعى أقزاماً ، والتى تعيش فى النار تسمى سمندرات ، ولها أسماء أخر أوردها پرتسلسوس فقال : « وأرواح الماء تسمى أيضاً أونْدينا ، وأرواح الهواء سِلفستِرا ، وأرواح الجبال تسمى جنوم ، وأرواح النار تدعى ڤولكانا ، أحرى من أن تسمى سمندرات » (الكتاب المذكور م ٢) . وأُنْدين مأخوذة من الكلمة اللاتينية Undina بمعنى الموجة ، وكلمة سلفا مأخوذة من الكلمة اللاتينية Silva بمعنى الغابة أو الحرش ، وكلمة جنوم مأخوذة من كلمة يونانية مفقودة تدل على ساكن الأرض ، وڤولكانا نسبة إلى الإله ڤولكان إله النار والرعد .

والرومنتيك قد استهوتهم هذه التصاوير فعكفوا عليها يستخرجون منها مواد وموضوعات لقصصهم الأسطورية ؛ والأماكن التى لذلهم أن يحلموا بأسرارها هى بعينها تلك التى تقطنها هذه الأرواح . فالأنهار لها سحر غريب ، وبخاصة نهر الرّين ، الذى تكاد تدور حوله وفيه معظم الأساطير الجرمانية ، وبخاصة ما اتصل منها بأسطورة النيبلُنجن مما أبدع فى تصويره وتلحينه ڤَجْنَر فى رابوعه الموسيقى المشهور المعروف برابوع النبلنجن ، خصوصاً الجزء الأول بعنوان : « ذَهَبُ الرّيْن » . وأقصوصة « أندين » التى أمامنا الآن تدور أيضاً فى الماء ، فى

نهر الدانوب وما يتفرع منه عند منابعه الأولى فى إقليم إشْڤابن الفاتن . والمجال هنا اذن مجال الأنْدينات . ومن القصص الرومنتيكية المشهورة التى تجرى فى هذا المكان ، الماء ، قصة « ذى اللحية الزرقاء » لِلُدْڤج تيك . أما الغابة فقد كان لها هى الأخرى سحرها الهائل ، خصوصاً تلك الغابات الألمانية الرائعة القائمة فى منطقة الرَّين الأعلى ومنابع الدانوب حيث الغابة السوداء ، وتلك الأحراش المحوطة بالأسرار والتهاويل والصوفية العميقة . لهذا كان نصيبها أكبر نصيب فى هذه القصص الأسطورية ؛ والأمثلة عليها لا تحصى عند الرومنتيك ، ومن بينها خصوصاً أقصوصة « إكْبَرْت الأشقر » لِلُدْڤج تيك ، حيث تقيم المرأة العجوز الغريبة مع طائرها العجيب الذى كان يبيض كل يوم بيضة فيها لؤلؤة أو حجر ثمين ، فضلا عن أنها ، أى الغابة ، تكاد أن تدخل فى كل قصصهم الأسطورية ، ومن بينها قصتنا هذه : فان محور الرواية يقوم على اجتياز الفارس لغابة مليئة بالأشباح والتصاوير والجن ، وتكاد هى وحدها أن تكوّن العنصر الأسطورى الظاهر فى القصة ، إلى جانب وادى السواد الذى لا يلعب فيها ، فى الواقع ، غير دور تافه جداً ؛ وإن كانت الأرواح التى تعبث فى غابة قصتنا هى بعينها أرواح الماء التى تسكن فى السيول والأنهار الجارية فيها .

وللجبال كذلك عند الرومنتيك إغراء شديد لا يقل كثيراً عن إغراء الغابة . بل لا يقتصر ذلك على الرومنتيك وحدهم ، إنما

يمتد أيضاً إلى بقية الكلاسيك الألمان : فمن منا لا يذكر ليلة ڤالپورج على جبال الهرتس فى رواية « فاوست » بجزئيها ؟ إنها من أخطر المناظر التى تشاهد فى هذه الملحمة الكبرى ، و بخاصة ليلة ڤالپورج الكلاسيكية الواردة فى « فاوست الثانى». أما من بين القصص الاسطورية عند الرومنتيك ، فان قصة « رُوننبرج » لتيك هي أظهرها فى الإشادة بحياة الجبال وما فيها من سحر وروعة ، ثم بما فى الجبال من ثروة معدنية جذابة ؛ والعلة فى هذا أنها تمثل كنزاً قائماً على الأرض، لم يُفضَّ مافيه بعدُ، من أفخم الجواهر وأنفس المعادن .

والفكرة الرئيسية التى تقوم عليها الأقاصيص أو القصص المتأثرة بفلسفة پرتسلسوس هى نزوع الكائنات الدنيا إلى اتخاذ صور عليا بواسطة اتحادأتم : فكلها ابتداء من المادة الموات حتى الانسان الكامل العقل، تشتمل على عنصر روحى، تلك القوة التى تسرى فيها . وكل منها يحاول أن يرتفع إلى المرتبة الأعلى من مرتبته ، فى تصاعد مستمر وتعالٍ متصل. وهذا يجرى فى مراتب تصاعدية فى نوعين من الحركة : حركة تفاضل متزايد به تنتقل الوحدة الأولى إلى كثرة وتعدد ، وحركة تكامل عكسية به تعود الكثرة إلى الوحدة الأولى التى صدرت عنها . وهذا شأن كل مذهب فى وحدة الوجود : فهو يقول « بصدور » الكائنات فى مراتب تنازلية من الواحد الأول حتى المادة مارين بالعقول والنفس الكلية والانسان والحى والجماد ؛ حتى إذا ما انتهى إلى تلك

المرتبة الدنيا، لم يكن فى وسعه إلا أن يرتفع من حيث هبط فى مراتب تصاعدية تكوّن حركة « عَوْد » المتفرق المتفاضل المتعدد إلى المتجانس المتكامل الواحد .

وهذه الفكرة قد عرضها فوكيه فى قصتنا هذه فقال على لسان أندين وهى تقص على عِرْسها أمرها ، بعد أن بينت له بالتفصيل ما يجرى فى العالم الخفى ومن هم سكانه : « ولكن كل شىء يصبو إلى العلاء على نفسه . وعلى هذا النحو رام أبى ، وهو أمير قوى من أمراء مياه البحر الأبيض المتوسط ، أن تكون لابنته الوحيدة نَفْس ، حتى ولو جرها هذا إلى معاناة الآلام العديدة التى تعانيها الكائنات ذوات النفوس . غير أن بنات جنسنا لن يستطعن الحصول على نَفْس إلا بالاتحاد التام ، بواسطة الحب ، بواحد منكم . » (ص ٩٢ — ٩٣ من هذه الترجمة)

فأندين « بطلة » هذه الأقصوصة ، حورية من حوريات البحر ، تسكن مع أبيها فى البحر المتوسط فى قصور من البلور الرنان ، تنفذ خلالها السماء بشمسها الفاتنة الشعاع ونجومها المتلئلئة فى أعماق الليل ؛ ولهذه القصور حدائق فاتنة ترف فيها أشجار فارعة من المَرْجان ذوات ثمار زرقاء وحمراء ، وتوشّيها أزهار مائية وتيجان من اليراع . وقد رام لها أبوها ، حرصاً على تنشئة ابنته ، أن تظفر بنفس ، عملاً بسنة كل موجود فى نزوعه إلى العلاء على نفسه باستمرار . فأرسلها إلى العم كيلبورن، القاطن جدولا هناك فى غابة مليئة بالرؤى والأشباح بالقرب من نهر الدانوب . وهذا

العم «يحيا هنا فى هذا الجدول حياته الغريبة وحيداً فريداً نائياً عن الأحباب . ولكنه قوى ، يتمتع بتقدير كثير من الأنهار الكبيرة وحبهم » . وهذا بدوره قد أتى بها إلى شاطىء لسان من الأرض، يمتد فى بحيرة بديعة فى الجانب المقابل للمدينة من هذه الغابة العجيبة ، حيث يقيم صياد عجوز ورع هو وامرأته . وهذان كانا قد ولدت لهما بنت ، سرعان ما التهمها الماء حين كانت العجوز الأم تحملها على حافة البحيرة . وفى تلك الأثناء كان الصياد غائباً؛ فلما عاد وجد ابنته قد فقدت . وبينا هما فى حزنهما العميق، إذ أتت اليهما تلك الفتاة الرائعة الجمال ، أندين ، أتى بها اليهما الغم كيلبورن . فتبنياها ، عوضاً عن ابنتهما المفقودة . و بعد مضى أعوام جاءهما فارس، هو الفارس الشابى هلدبرند فون رنجشتتن.

وهذا الفارس هو الذى سيبنى بأندين ، مما سيحقق لها أن تظفر بنفس . ولكن الظفر بالنفس ليس من شأنه أن يسعد صاحبه . فبحصولها عليها ستكون عرضة للأحزان والآلام، لأن الذى يتأثر فينا هو النفس ، و بدونها لن نتأثر بأى حزن . ستكون أندين إذن كبنى الانسان ذوى النفوس ، خاضعة للأشجان ، بعد أن كانت من قبل « فى فرح وسرور ، ولا تستسلم مطلقاً للحزن والأشجان ، مثلها مثل البلابل والأسماك الذهبية وأبناء الطبيعة الوسماء الآخرين » (ص ٩٢) .

فالفكرة هنا فى هذا القول هى الفكرة التى سيفصلها شوپنهور ونيتشه ، فكرة أن الألم يوجد بالقدر الذى به يعلو

الإنسان فى مراتب التطور ، وكلما ازداد الألم وتنوع ، كان ذلك شاهداً على ازدياد السمو فى مراتب الوجود . وليس الألم إذن شراً ، بل هو عنصر ضرورى لوجود السمو .

ولكننا يجب أن لا نقسر القصة على هذا التفسير ، لأنه وإن كان مراداً منها ، فإن المؤلف كان فناناً أكثر منه فيلسوفاً أو متصوفاً . لهذا لم يعن بتفصيل هذه الناحية . ومع أن أندين ، بعد أن حصلت على نفس ، قد قاست الكثير ، فان هذا الشقاء لا يبدو من القصة أنها عانته لأسباب عميقة صوفية ، بل لمعانٍ مبتذلة هى الغيرة المألوفة عند كل النساء ، حين رأت الفارس يتجانف إلى قلب برتلده قليلا قليلا . وبرتلده هذه هى الفتاة الفاتنة التي حملت الفارس هُلدبرند على ولوج الغابة العجيبة. وهى ابنة متبناة لدوق ، وقد حملته على إتيان هذا الفعل الجرىء كثمن لحبها إياه ، وفقاً لتقاليد الفروسية المعروفة فى القرون الوسطى . وإن كنا مع ذلك نحس بأن هذه الغيرة التى لدى أندين ليست من النوع الإنسانى العادى . لأن الباعث الأصيل فيها لم يكن مجرد الحسد والحنق على منافسةٍ لها فى فراش الزوجية ، وإنما هو تمجيدها للاخلاص فى الزوجية من جانب زوجها . والأمر ظاهر فى هذا ، خصوصاً إذا لاحظنا أن عدم إخلاص الزوج سيجر هنا ، فى حالة أندين ، إلى أن تهجره هذه وتعود أدراجها إلى قصر أبيها البلورى تحت أمواج المحيط ، وأن تضطر هى إلى قتله لخيانته . فالتفسير الظاهرى لمسلك أندين على أنه قد أملته

الغيرة وحدها تفسير غير صحيح . إنما طريقة المؤلف فى تناوله الموضوع هى التى توهم أو تحمل بعض النقاد على هذا التفسير ، كما فعل روج فى مقدمة ترجمته الفرنسية (ص لج) . والحق إن المؤلف ، كما لاحظ جيته بكل حق ، لم يستطع أن يفعل بهذه الأسطورة الرائعة ما يجب أن يفعله ، وما يسمح به موضوعها الرائع . وقد كان خليقاً بموضوع كهذا أن يرتفع إلى الذروة من الفن الرفيع والفلسفة العميقة لو أن الذى تناوله فنان كجيته . ولكننا نقول ، مع ذلك ، إنصافاً لفوكيه ، إنه قد استعاض عن العُمق بالرشاقة التى تستهوينا خصوصاً فى هذه الفتاة ، وإنه كان هنا عميقاً إلى درجة ما فى شعوره بالألم ، بعكس ما نراه فى بقية قصصه التى تفيض بتفاؤل أهوج ساذج ، ونُعَرة تبعث على الابتسام العريض والسخرية الطويلة .

وعلى كل حال ، فان هذه السطحية فى تناول المشاكل التى تعج بها الأقصوصة لا تنقص من قدرها كثيراً من الناحية الفنية الخالصة ، لأن الفن للتعبير ، لا للتفكير ، وفوكيه قد عبر عن هذه المشاكل بطريقة جذابة ، قد جمعت بين الفكرة والجمال الفنى الخالص .

وفى مقابل هذا ، جاءت النزعة الإنسانية بارزة فى أندين بكل وضوح . فما فقدته فى عمق إحساسها الميتافيزيقى ، قد كسبته فى إحساسها الإنسانى الأرضى . وهذا من شأنه أن يجعل تأثيرها فينا ، من الناحية الانسانية الخالصة ، أعمق بكثير . لهذا تهز

فينا أوتاراً شديدة الحساسية من مجرد قراءتها ، لأنها تدور خصوصاً حول عواطف انسانية أليفة عبر عنها المؤلف ، وكان فى هذا التعبير يصدر عن تجربة حية عاناها ، هى تجربة اخفاقه فى زواجه الأول ؛ ولعله ظن أن الخيانة قد جاءت من جانب الزوجة ، فكانت الضربة أليمة فى نفسه هو بالذات . لذا نراه يقول فى الفصل الثالث عشر : « من يروى هذه القصة يرويها لأنها تهز أوتار قلبه ، ولأنه يود أن يهز بها أوتار قلوب الآخرين » ، حتى إنه ليشعر بأشد الألم من مجرد روايتها ، واتخذ من هذا عذراً عن الاطالة فى تحليل العواطف المتصلة بهذه المسألة ، مسألة انصراف قلب الزوج أو الزوجة الى شخص آخر ، حتى قال : « ولكن قلبه سيألم لهذا (القص المفصل) كل الألم ، لأنه مرَّ بتجارب شبيهة بهذه ؛ ولا يزال يفزع ، حتى فى الذكرى ، من ظلال تلك التجارب » . ولسنا نريد أن يبلغ بنا المكر درجة نظن معها أن فوكيه كان هنا غير صادق فيما قال ، وأنه انما قصد من ورائه تبرير ما فى قصته من نقص فى ناحية التحليل الدقيق للعواطف ، هذا النقص الذى أخذه عليه خصوصاً هذا الناقد اللاذع الماكر — وهو مع ذلك سطحى فى نقده ، وجل اعتماده على الفكاهة والسخرية واللمز دون التعمق — هينرش هَيْنه فى كتابه « المانيا » (مجموع مؤلفاته ، ج ٣ ، ص ٢١٥ و ٢١٦ ، طبعة ركلام ، ليبتسج) ، ولو أنه مع ذلك قد أشاد بهذه الأقصوصة ونعتها بأنها إلهة الفن فى شعر فوكيه ؛ وأخذ عليها أنها ، على

الرغم من تألم أندين فيها الى درجة كبيرة ، ليست انسانية حقاً ، انما نقول نحن ، إنه حتى مع اعترافنا بصدق شعور فوكيه فيما قاله هنا ، فإن ذلك ليس عذراً كافياً لـكي يعزف عن تحليل هذه العواطف . ماذا أقول ! بل أنا أذهب الى أبعد من هذا فأرى أن الأمر كان يجب أن يكون على العـكس من ذلك ، فيعنى المؤلف بالتحليل لتلك العواطف الى أقصى درجة ممكنة ، لأن فى هذا التحليل شفاءً للنفس من هذا الداء ؛ اللهم إلا اذا كان فوكيه يريد أن يخلد الى آلامه وأن لايبرأ منها روحياً بتحليلها .

ولهذا فاننا نقول إن المؤلف قد قصَّر فى تحليل العواطف العميقة التى تجرى فى نفوس أبطال قصته ، وعلى الأخص أندين وهلدبرند ؛ وإنه كان فى هذه الناحية سطحياً الى حد كبير ، مع أن الموضوع من أجل الموضوعات التي تتناسب وهذا التحليل .

ولـكن دعنا من هذا الآن ، ولنمض فى تحليل شخصية أندين . فنقول إن أخص ما تمتاز به هو أنها غرام فى غرام . فعاطفة الحب لديها عنيفة خصبة واسعة معاً : ومصدر هذا فى أكبر الظن براءتها وسذاجتها الطفولية ، مما من شأنه أن يولّد عواطف حارة مؤمنة لا تعرف الاضطراب ولا الشك . وسَعَة هذا الحب تتجلى فى أنه لا يقتصر على هلدبرند ، زوجها ؛ بل يمتد كذلك إلى كل من حولها ، حتى منافستها الخطيرة برتلدة . فعلى الرغم من أنها تتوقع مقدماً ما سيجره عليها عطفها على برتلده ، فإنها تأخذها وإياها إلى قصر رنجشتتن ، تاركة بذلك المجال

فسيحاً أمام الفارس والفتاة كى تنطلق عواطفها القديمة ؛ خصوصاً وهى تعلم تمام العلم أن الحب الأكبر هو دائماً للحبيب الأول ؛ وأن برتلده أقرب إلى هلدبرند ، لأنها إنسانة ، بينما أندين جنية قد عكرت صفو حياة زوجها الانسان بقرابتها المشئومة للأرواح العنصرية الساكنة فى الماء . وأكثر من هذا نراها تنقذ برتلده بعد أن فرّت إلى وادى السواد ، وقد كاد عمها كيلبورن ، بعد أن رأى برتلده والفارس ، الذى عاد بها من موضع فرارها فى هذا الوادى ، يتناثن أحاديث الغرام ؛ — نقول بعد أن كاد عمها كيلبورن أن يفتك بها هى والفارس هلدبرند . ولكنه الحب العميق الواسع الذى عند هذه الكائنات الجِنّية هو الذى يحملها على هذا الاحسان ، بل ويحملها أيضاً على تحقيق رغبة برتلده فى القيام بنزهة فى الدانوب انحداراً حتى فينا ، مع أن هذه الرحلة المشئومة هى التى ستكون السبب فى غضب هلدبرند عليها وانتهاره إياها وهى بالقرب من الماء ، مما سيحملها على مغادرته والغوص فى الماء .

وهى تمثل هذا الحب عنيفاً كل العنف ، مسرفاً فى الاخلاص للشخص المحبوب . وهذا فى الواقع هو ما استهوى فجنر خصوصاً فى هذه الأقصوصة التى أعجب بها كل الاعجاب ، حتى كانت آخر شىء قرأه لأهله، وأثرت هذه القراءة فى نفسه أشد التأثير ، إلى درجة أنه تحت هذا التأثير نهض إلى البيان للمرة الأخيرة فى حياته ، فعزف القطعة التى ألهمته إياها ابنة الماء هذه ، وذلك فى

الأغنية الأخيرة من أغانى بنات الرين . لذا لاحظ روج بحق (فى الموضع المذكور من المقدمة) أن بطلة فوكيه هى بدون شك التى ألهمت فجنر هذا الحكم على المرأة والحب ، الذى نجده فى بحثه بعنوان «الأوپرا والمسرحية» (سنة ١٨٥١) حين قال :

« إن جوهر المرأة هو الحب ، ولكنه الحب الذى يتقبل ، والذى فيه من تتقبل تبذل نفسها بلا تحفظ . إن المرأة لا تصير شخصية ، بالمعنى الملئ لهذا اللفظ ، إلا فى اللحظة التى تبذل فيها نفسها . إنها ابنة الموجة ، إنها كائن بلا نفس ، يسبح خلال أمواج عنصره ، حتى يحظى بنفس بواسطة حب رجل لها » .

والحق أننا إذا فسرنا « أندين » هذا التفسير ، لبدت لنا نظرية الحب فيها فى درجة سامية . فسيكون مضمون هذه النظرية إذن هو أن الحب يهب المرأة نفساً ، أى يهبها ما يكوِّن ذاتها الحقيقية ، و بالجملة ما يجعلها إنساناً ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ممتاز . ولكنه يجب ألا يكون حباً سلبياً تتقبل فيه دون أن تعطى ، بل لا بد أن يكون إيجابياً فى نفس الآن ، بأن تبذل نفسها فيه لعاشقها . وهذا صواب كل الصواب . لأن الحب الذى يكون تقبلا خالصاً هو فى الواقع حب لا يعنى أحداً غير العاشق ، بينما المعشوقة لن تبذل فيه شيئاً ، و بالتالى لن تستفيد منه فتيلا ، من أجل إثراء مضمونها الروحى ، كما هو المطلوب من كل حب صادق. وحينئذ سيصدق عليه قول فيلين فى قصة «فلهلم مَيِسْتر» : « اذا كنت أحبُّك ، فهل هذا يعنيك ؟ » أجل إن

مثل هذا الحب لا يعنى أحداً غير صاحبه ، أما المعشوق فلايعنيه في شيء ، لأنه لم يقابله بحب ايجابى فيه يبذل نفسه كما بذل العاشق نفسه هو الآخر . وهـذا هو السر فى اكتفاء بعض العاشقين بمجرد عشقهم دون مبادلة هذا العشق من جانب المعشوقين ، لأن الأمر يعنى الأولين دون الآخرين ؛ ثم فى عدم احتفال الآخرين أحيانا بالأولين . ولـكن يظهر أن فوكيه يريد من الحب أن يكون متبادلا ، وإلا أعقبت ذلك نتائج وخيمة ، كتلك التى عاناها الفارس هلدبرند .

وحب أندين يبلغ الذروة حتى فى قتلها لمعشوقها . فهى تقتله بقبلة ، تقتله لأنه خان الحب ، ولم يكن وفياً لها بعد مغادرتها إياه . فان شريعة الحب تقتضى استمرار الإخلاص حتى النهاية. وهذا هو الدرس السامى الذى يجب أن يستخلص من خاتمة القصة : فغياب أندين هو وفاة الحبيبة أو الزوجة . فعلى المحب الحقيق ، وعلى الزوج المخلص ، أن يستمر فى حبه وإخلاصه دائماً حتى بعد وفاة موضوع العشق؛ لأن الأمر هنا أمر الحب فى ذاته، كعاطفة من شأنها الارتفاع بالطرف الحامل لها ؛ وليس يعنيه بعد كثيراً أن يكون هذا الموضوع حاضراً بالفعل باستمرار ، أو غير حاضر أبداً .

والمعنى الأسمى فى هذه الأقصوصة هو فى أن هذا الحب هو وحده الـكفيل بأن يرتفع بالمرأة من مرتبتها العنصرية الدنيا إلى مرتبة الانسانية . فالمرأة لا تستطيع الحصول على نفس ، أى

على ما يكوّن حقيقتها وماهيتها الانسانية ، إلا بواسطة الحب ، الحب الصادق العنيف الواسع المخلص أبداً ، الحب الذى يكون فيه اتحاد تام بين الطرفين العاشقين . هذا الحب فى معناه الوجودى هو الارتفاع بالذات الفردية إلى مرتبــة أعلى دائماً ، وهكذا باستمرار ، حتى تستطيع أن تصل إلى أن تــكون شاملة لــكل ما هو موجود . وحينئذ تبلغ النفس مرتبة الألوهية التى يصبو كل ما فى الــكون إلى تحقيقها ، كما يقتضيه مذهب وحدة الوجود فى فــكرة العود بعد التفرق والتفاضل إلى حضن الألوهية الواحد الفسيح . والحب إذن هو القوة التى بها ستتحقق غاية الوجود ، أعنى أن يصير الــكل فى الــكل على هيئة الألوهية الغائية ، أعنى التى هى مآلنا ومآل كل موجود ينزع إلى تحقيق أعلى كمالاته الممــكنة .

ذلك هو المغزى الذى يجب أن نستخلصه من شخصية أندين .

أما شخصية كيلبورن التى تمثل البطل الثانى فى الأقصوصة ، فتعبّر عن قوة الطبيعة الهائلة وعجز الانسان بالنسبة إليها . فهذا السيل الجارف المترصد لبنى الانسان فى كل مكان ، والذى يحاول هــذا البائس أن يدرأه عن نفسه ، فلا يستطيع ، يشيع فينا الــكثير من الخوف والرهبة ، ويحملنا على التسليم بأحكام المصير ، لأننا مهما فعلنا فسيسخر منا كل السخرية . فها هو ذا الفارس هلدبرند — وهو يمثل الانسان بغروره الزائف وكبريائه الجوفاء الطائشة — يحاول أن يضرب به بسيفه ، ويطعنه ، ولــكن

كيلبورن يتهانف ساخراً منه ، مستحيلاً إلى جدول أو تيارماء .
وهذا التهانف هو سخرية القدر بنامعشر الآدميين المغرورين .
وقد يظن الواحد منا أحيانا أنه لم يعد خاضعاًله ، فيتناسى سلطانه ،
ولـكنه سرعان ما يصرعه فى أوهامه ، و إذا بالإنسان بعد قليل
أمام خيبة أمل تـكاد أن تعصف بكل القيم التى بناها فى نفسه
عن نفسه . فنحن هنا إذن بإزاء التهكم الرومنتيكى القتّال ، التهكم
الذى يقضى علينا كأناسى ، ولا يجدى فى دفعه إخلادنا إلى العطف
والرثاء لحال هذا الانسان المسكين .

غـير أن فوكيه لم يسرف فى استخدامه إلى درجة الجبرية
أو الإيمان المطلق بالمصير الحتمى ، كما فعل كثير من الرومنتيك
الآخرين . بل نراه يؤكد مع ذلك جانب الحرية الإنسانية ،
لأن الخطيئة التى ارتـكبها هلدبرند هى السبب فى شقائه ثم فى
موته ، خطيئة الخيانة الزوجية . فهو لا يمثل لنا القدر وكأنه قوة
طاغية مستبدة كل الاستبداد وليس الانسان إلا ألعوبة فى يدها ،
بل يصوره حاكما ، أجل قاسيا ، ولـكنه واقف لنا بالمرصاد ،
يعاقبنا فى كل لحظة نتجانف فيها إلى الإثم أو تستهوينا فيهامغريات
الخطيئة . لذا كانت قوة تهذيبية ، أكثر من أن تكون قوة
هدامة باستمرار . فـكيلبورن يترصّد كل فرصة ينزع الفارس
فيها إلى الخيانة، كى ينبهه فى عنف وقسوة إلى المزالق التى ينحدر
إليها ، حتى إذا ما رآه فى النهاية قد خان خيانته العظمى ، قرر
قتله أشنع قتلة . وهنا تتدخل أندين الطيبة القلب ، لا لتمنع

عقابه أو تحول دون أن تأخذ العدالة مجراها ، حتى على أعز الناس لديها ، ولكن لكى تعلمه أنه لا بد مقتول بسبب خيانته لحبها . وكأنها تريد أن تقول له إذن : سيقتلك الحب ، لأنك خُنت الحب .

تلك إذن ما « بأندين » من معان رائعة عميقة تهيب بأنفسنا ، نحن أبناء هذا الجيل ، أن نتمثَّلها ثم نحياها بكل ما فيها من عمق وقوة ، حتى نُثْرِى بها مضموننا الروحى إلى الحد الأسمى ؟

ديسمبر سنة ١٩٤٣ عبد الرحمن بدوى

أُنْدين

لفريدرش هينرش كارل فوكيه

إهداء أندين[1]

إيه يا أندينُ يا سحرَ النظرْ ،
منذ أشْرَقتِ بسفْرِ الأقدمين[2] ،
فملأتِ الروحُ نوراً فانبهرْ ،
كم تغنيت لقلبي بالسُّكون !

كم تعلقتِ بصَدْري شاكِيهْ ؛
لم تَرَىْ إلا فؤادي تأمنين ،
تُلهمين الحزن أُذْناً صاغيهْ ؛
طفلتي أنت لعوبُ تفزعين

إنّ قيثاري يُغنّي بِوَتَرْ
ذهبيِّ اللحنِ فتانِ النغم ،
مُنْشِداً قولاً من الفَمِّ النَّضِر ،
فِلكَ العذبِ ، يُدوِّى فى الأُمَم .

(١) هذا وضعه الإهداء فوكيه للطبعة الثانية « من أندين » وقد ظهرت هذه الطبعة سنة ١٨١٤ .

(٢) الإشارة إلى كتاب بَرَتْسلْسس : «الحوريات والسَّلْفيات والأقزام ، والسمندرات وأرواح أخر » .

كم قـلوبٍ سرّها ما عرفت
عنك ، بالرغم من الطبع الغريب ؛
كم نفوسٍ بكتـابى شُغِفت ،
كى يروا كلَّ فريد وعجيبِ

إنهم يرجون ذا اليومَ اسـتماعا
لأحاديثك هذى ، من جديدْ ؛
فاخلعى عنـك حيـاء وارتياعا
ايه يا أندين ، واستهوى الوفودْ

ولتحيِّى كلَّ شهْمٍ باحتفـال ،
ثم حيِّى قبــل كل الوافدين
نِسْوة الألمـان ، أمثـال الجمال ،
فلهن الـكأسَ بشراً تملأين .

واذا عَنِّى تسـاءلْن فقولى :
فارسٌ يحمى الغوانى مخلصُ :
فى الوغى بالسيف ؛ والعودِ الجميلْ
فى مجالى الأنس ، حيث المرْقصُ .

الفصل الأول

كيف جاء الفارس إلى الصياد

انصرمت أحقابٌ متطاولة منذ أن كان صياد طيبٌ عجوز يجلس فى أُمْسية جميلةٍ أمام بابه يرفو شِباكه . ولـكن الطبيعة من حوله كانت رائعة الجمال : فالأرض التى أقام عليها كوخه تعلوها الخضرة وتمتد مستطيلة داخل بحيرة واسعة ، حتى ليخيَّل للناظر أن هذا اللسان من الأرض قد استطال وسط الأمواج هُياماً منه برونقها الأزرق الغامق الوضّاء ، وأن المـاء هو الآخر قد طوق بذراعيه العاشقين المرجَ الجميل بما فيه من حشائش عالية وأزهار مترجّحة ، وبما لأشجاره من ظلال مُنْعشة ، فكان الماء والأرض يتزاوران ، ولذا كان كلاهما فاتن الجمال . أما الناس فلم يكن يُرى منهم أحدٌ أو لا يُرى إلا القليـل النادر فى هذا المُقام البديع ، اللهم إلا الصياد وذويه . ذلك لأنه وراء هذه القطعة من الأرض كانت تنتشر غابة شديدة الايحاش تثير الفزع فى قلوب الـكثيرين بظلمتها ووعورتها ، وبمـا نُسِـج حولها من أقاصيص ترْوى الغرائب عن الـكائنات العجيبة والأوهام المخيفة التى لا بد للإنسان وأن يلتقى بها فيها ، إلى درجة أنه لم يخطر لأحد أن يلجها إلا إذا كانت ثمة ضرورةٌ قصوى . ومع هذا ، فإن الصياد العجوز ، هذا التقىّ الورع ، كثيراً ما جاس خلالها دون أن يصاب بمكروه ، حين كان يذهب إلى المدينة التى لم

تـكن تبعد كثيراً وراء الغابة الهائلة ، كي يبيع السمك الفاخر الذى اصطاده من بحيرته . وكان يُعينهُ كثيراً على اجتيازها دون وجلٍ أن باله لم يكن مشغولاً بغير الأفكار الطيبة الورعة ؛ ولهذا كان كثيراً ما يتغنى بأنشودة مقدّسة بصوت جهْورى وقلب قانتٍ ، أثناء مروره تحت الظلال المُريبة .

فى تلك الأمسية إذن ، كان جالساً أمام شِبا كه ، آمنَ السرب رخىّ البال ؛ ولـكنه انتفض فُجاءةً فى فزع شديد ، حين سمع ضوضاءً آتيةً من ظلمة الغابة ، وكأنها جَلبةُ جوادٍ وفارسٍ ، تقترب منه قليلاً قليلا . هنا استعادت نفسهُ كلّ ما كان يحلم به من أسرار الغابة إبان الليالى العاصفة ، على الأخص صورةَ رجلٍ فارع القامة أبيض كالثلج ، كان يهز رأسه دائماً بطريقة غريبة . بل إنه حين رفع بصره لـكى ينظر ناحية الغابة ، شعر بأنه يرى تماماً ، من خلال الأشَب ، ذلك الرجل المُنْغِضَ الرأس وهو يتقدم نحوه . ولـكن سرعان ما ثابت إليه نفسه ، قائلاً لها إنه لم يحدث له فى الغابة ما يثير البال ، و إن الروح الشريرة لن تكون أقوى عليه فى الغابة منه وهو فى شبه جزيرته المعرّاة ؛ وكان يقرأ فى نفس الآن آيةً من الـكتاب المقدس بصوت قوىٍّ صادر من أعماق فؤاده ، مما أفرغ عليه كل شجاعته ، حتى أنه كاد يبتسم حين تعرّفَ خطـأه ، إذ كان يرى فجأة أن الرجل الأبيض المنغض الرأس ليس شيئاً آخر غير الجدول المعروف لديه تماماً والذى كان ينبثق من الغابة جياشاً بالزَّبَد كى يصبّ فى البحيرة . أما علة

الضوضاء فكانت فارساً فاخر اللباس يتقدم على خطوات جواده الموزونة خلال ظلال الأشجار فى اتجاه الكوخ ، وعليه معطف قرمزى يتهدّل على قميص بنفسجى مبرقش بالذهب ، وعلى قَلَنسُوَته يتماوج ريش بنفسجى وأحمر ، وفى حمالته الموشاة بالذهب يرف سيفٌ باهر الجمال غنىٌّ بالزخرف . أما الجواد الأبيض الذى كان يحمله فقد كان أشد ضمورة مما نراه عادة فى خيول الحرب ، وكان يخُبّ على الخضرة فى خفة بالغه ، حتى إن البساط الأخضر الذى انتثرت عليه الأزهارُ العديدة الألوان قد بدا خالياً من آثار حوافره . ولكن الطمأنينة لم تستول بعدُ على الصياد العجوز ، على الرغم من شعوره بأن شيئاً من الشر لا يُتصوَّر صدوره عن مثل هذا المظهر النبيل ، فرفع قبعته باحتشام كبير تحية لهذا السيد الذى يقترب منه ، وظل وادع النفس أمام شباكه . وهنا توقف الفارس متسائلاً عما إذا كان يستطيع أن يجد لنفسه ولجواده الليلةَ مأوى فى هذا المكان . فأجاب الصائد : «أمّا عن جوادك ، أيها السيد العزيز ، فلا أعرف له اسطَبلاً هنا خيراً من هذا المرج الظليل ، ولا علَفاً أحسن من العشب الذى ينمو فيه . أما أنت ، فأود أن أستضيفك فى كوخى كى تتناول طعام العشاء وتنام ، بالقدر الذى يستطيعه مَنْ هُمْ فى مثل حالنا » . فارتاح الفارس لهذا كل الارتياح ، ونزل من على جواده ؛ ونزع عنه لجامه وسرجه بمعاونة العجوز ، وأرسله يثب نحو المرج الموشّى بالأزهار ، قائلا لمضيفه : : « وحتى لو لم

أجد عندك كل هذا القدر من حسن الضيافة ، أيها الصياد العجوز ، فانك لم تكن لتتخلص منى هذا المساء ، لأنى أرى أن ثمة بحيرة واسعة تمتد أمام ناظرى ؛ أما أن أعود أدراجى خلال هذه الغابة الغريبة ، فهذا ما أستعيذ بالرحمن منه !» . «ألا فلنتجنب الخوض فى هذا الحديث » ، هكذا قال الصياد ، واقتاد ضيفه إلى داخل الكوخ .

وفى داخل الكوخ كانت نار ضئيلة تضىء الغرفة النظيفة المتشحة بظلال الأصيل ، وقد جلست حول الموقد امرأة الصياد الهرمة على كرسى كبير . فلما دخل هذا الضيف الممتاز ، نهضت لتحيته بلطف ، ثم أسرعت بالجلوس فى مكان الشرف ، دون أن تقدمه إلى الغريب . فقال الصياد باسماً : « لا ضيرَ عليكَ من أنها لم تتخل لك ، أيها السيد الشاب ، عن أوثر كرسى فى المنزل ، فإن العادة قد جرت لدى الفقراء بأن يُخصص هذا المجلس للشيوخ وحدهم » . فقالت الزوجة بابتسام هادىء : « ماذا ، بعلى ؟ إلى أين ذهب بك الفكر ؟ إن ضيفنا ، فيما أحسب ، رجل مسيحى ، فكيف يخطر ببال شاب لطيف أن يطرد الشيوخ من حيث يجلسون ؟ » . واسترسلت فى حديثها قائلة ، وقد اتجهت نحو الفارس : « تفضل بالجلوس ، سيدى الشاب ، فإن هناك فى ذلك الركن كرسياً آخر ، إن يكن صغيراً فهو رشيق ؛ لكن حذار أن تتحرك عليه بشدة ، فإن أحد أرجله لم تعد متينة كل المتانة » . فجرّ الفارسُ الكرسىّ إليه بحذر ، وجلس عليه ،

وكأنه صديق للمنزل قديم ، إذ خُيِّل إليــه أنه يرى فى هؤلاء الشيوخ المتواضعين أهلاً له ، وكان يشعر كأنه فى بيته وقد عاد من سفر طويل .

ثم بدأ ثالوثهم الحديثَ فى لهجة ملؤها الألفة والثقة . أما عن الغابة التى حاول الفارس مراراً أن يعرف من أمرها شيئاً ، فإن الشيخ فضل ألا يوغل فى الحديث ، قائلا : « إن هذا لا يوائم ، خصوصاً عند ما يأتى المساء » . وانما أطنب الرجل وامرأته فى الحديث عن تدبير منزلهم ومعاشهم ، وأقبلوا من جانبهم على الفارس وهو يحدثهم عن رحلاته ، ويروى لهم أن له قصراً قرب منابع الدانوب، وأن اسمه السيد هُلْد برَنْد فون رنْجشتتن .

وخلال الحوار كان الغريب يسمع أحياناً طَبْطَبَةً من جانب النافذة السفلية الصغيرة ، أشبه ما تكون بصوت ماء يقذف عليها ، وكان الشيخ فى كل مرة يسمع فيها هذه الضوضاء يقطب جبينه ساخطاً . وأخيراً تدفق الماء فى مواجهة الألواح ونفذت من خلال إطارها غير المحــكم الوضع ، الى داخل الغرفة . فنهض الصياد حينئذ مغْضَباً ، وصاح بصوت زاجر فى اتجاه النافذة : « أندين ! ألن تكفى بعد عن هذا العبث ؟ خصوصاً اليوم ولدينا فى الكوخ سيدٌ غريب » . وهنا انقطعت الضوضاء فى الخارج ، ولم يكن يُسمع غير ضحكة صغيرة مختنقة ، فقال الصياد وقد استعاد مجلسه : « لا عليك من هذا ، أيها السيد ، وما عسى أن يحدث أيضاً من فَعَلات غير ملائمات ، فهى لا تقصد من ورائها سوءاً . إنها

ابنتنا المتبناة أندين التى لا تزال على حال الطفولة ، على الرغم من أنها ربما كانت فى الثامنة عشرة . وعلى الرغم من هذا فانها كما قلت طيبة القلب . — ما أيسر أن تقول هذا ! هكذا أجابت العجوز فى اعتراض منغضة إليه رأسها : أجل ، إن ألاعيبها قد تبدو لك بديعة حين تؤوب من الصيد أو من المدينة . أما عرامها على طوال النهار وعدم سماع كلمة منها معقولة ، و بدلا من أن أجد فيها معيناً لى على أمور البيت بينا أتقدم فى السن ، أرانى فى خشية دائمة من أن تفضى بنا نزواتها الجنونية إلى كارثة هائلة — هذا كله شىء آخر ، يرفض له الصبر المقدس نفسه . — فتبسم رب البيت من قولها قائلا : مثلك أنت وأندين مثلى أنا والبحيرة ، فإنها كثيراً ما تعصف بسدودى وشبا كى ، فلا يقلل هذا من حبى لها ؛ والأمر كذلك فيما بينك و بين الطفلة اللطيفة ، على الرغم من كل ما تحدثه لك من متاعب ومضايقـات ، أليس كذلك ؟ — فأجابت العجوز فى ابتسامة مؤمنة على كلام بعلها : ليس فى الوسع أن يحمل منهـا الانسان هذا محمل الجد .

وهنا فتح الباب فجأة وتسربت منه إلى الغرفة فتاة شقراء رائعة الجمال ، ابتسمت ثم قالت : « لقد سخرت بى يا أبى ، و إلا فأين إذن ضيفك ؟ » ولـكنها أبصرت الفارس فى اللحظة عينها ، فوقفت ذاهلة أمام هذا الشاب الجميل . وسر هلدبرند بصورتها الفاتنة ، وظل يتأمل قسماتها البديعة و يطبعها فى ذهنه ،

ظاناً أنه لن يتيسر له ذلك إلا بفضل تلك المفاجأة ، وعما قليل سيضطرها الحياءُ الفَزِعُ إلى الفِرار من نظراته . ولكن ماحدث كان على النقيض ؛ فانها بعد أن تأملته طويلاً تقدمت إليه فى شىء من الألفة والثقة وجثت أمامه قائلة وهى تلعب بالنوط الذهبى المعلق فى سلسلة ثمينة على صدره : « أيها الضيف الجميل الكريم ، كيف حدث إذن أن أتيت إلى كوخنا ؟ وهل كان عليك أن تذرع العالم ، قبل أن يكون فى وسعك الوصول إلينا ؟ أقادم أنت من الغابة الموحشة ، أيها الصديق الجميل ؟ » ولكن العجوز اللوّامة لم تدع للفارس فرصة للجواب ، بل حَثّت الفتاة على النهوض والمثول باحترام ، ثم الاقبال على عملها . ولكن أندين لم تُصغ إليها ، وانما قرّبت كرسيًّها من مجلس هُلدبرند ، واضطجعت عليه ومعها مخيطها ، ثم قالت بصوت عذب : « هنا يحلو لى أن أشتغل » .

أما الشيخ فقد فعل كما يفعل الآباء عادة مع أبنائهم المدلَّلين ، إذ أظهر نفسه بمظهر من لم ير شيئاً من أفعال أُندين غير اللائقة ، ورام الحديث عن شىء آخر ، ولكن هذه قطعته عليه قائلة : « سألت ضيفنا العزيز من أين أتى ، ولكنه لم يُحْرِ بعدُ جواباً » . فأجاب هُلْدِبرند : « من الغابة أتيت ، أيتها الطفلة الجميلة » . فواصلت حديثها قائلة : « عليك إذن أن تقص على كيف وَلَجتها ، لأن الناس يفزعون منها عادة ، وبأية مغامرات مررت ، إذ يقال إنه ليس فى وسع أحد ألا يحدث

له منها شيء » . فأحس هلدبرند بشيء من القُشَعْريرة حين استعاد تلك الذكرى ، ورمي بنظره صوب النافذة على غير وعي منه ولا إرادة ، إذ خُيّل إليه أنه لا بد وأن تتراءى له من تلك الناحية صورةٌ من تلك الصور الغريبة التي التقى بها في الغابة ، تتراءى له مقطّبة الجبين . ولكنه لم ير غير الليلة العميقة الظلماء وهي تطل من وراء النافذة . فاستعاد شعوره ، وأخذ يقص قصته ، ولكن الشيخ قاطعه بهذه الكلمات : « كلا أيها السيد ! ليس هذا وقت أمثال تلك الأقاصيص » . وهنا وثبت أندين حانقة من فوق كرسيها ، وانتصبت أمام الصياد ، ويداها على وركيها ، وذراعاها الجميلتان على عِطفيها ، وصاحت : « أليس له أن يقص قصته ، يا أبي ؟ أليس له ذلك ؟ ولكني أريد ، بل وآمر ، وعليه أن يقص ! » وضربت الأرض حينئذ برجلها اللطيفة . كل هذا فعلته في شيء من الرشاقة والظرف ، حتى إن هلدبرند كان أقل قدرة الآن على التحول بنظره عنها وهي غاضبة ، مما كان من قبل وهي راضية . أما الشيخ فقد جاش غضبه المكتوم على صورة كلمات ملتهبة ، فأخذ يعنف أندين على عدم إطاعتها ، وعلى مسلكها غير الملائم بإزاء الضيف الغريب . وشاركته العجوز . فقالت أندين : « إن كنتم تريدون التعزير ولا تبغون أن تفعلوا ما أريد ، فناموا وحدكم إذن في كوخكم الأدْخَن العتيق ! » . ومرقت كالسهم من الباب ، هاربة في ظلام الليل البهيم .

الفصل الثانى

على أى نحو أتت أندينُ الصيادَ

فنزا هُلْدبرند والصيادُ من كرسييهما ، وأرادا اللَّحاق بالفتاة المُغْضبة ؛ ولـكن أندين كانت قد اختفت قبل بلوغهم الباب فى ظلام الليل الذى زاده السحابُ القاتم ظلمة على ظلمة ، ولم تكشف أيةُ نَأْمة من أرجلها الخفيفة عن الجهة التى يمكن أن تكون قد انتحت صوبها . فنظر هلدبرند إلى مُضيفه نظرة تساؤل ؛ إذ خيل إليه أن هذا المنظر الجميل الذى اختفى فى الليل فجأة لا يمكن إلا أن يكون استمراراً لتلك الرؤى الغريبة التى عبثت به من قبل فى الغـابة . ولـكن الشيخ دَمْدم فى لحيته قائلا : « هذه ليست أول مرة تعبث بنا هذا العبث . وهنالك نظل بعدها طوال الليل يساور قلوبنا الخوفُ ويجفو أعيننا النومُ ؛ فمن يَدرى ، لعل بعضاً من الشر أن يحدث لها فى إحدى هذه المرات حين تظل هكذا وحيدة فى الظـلام حتى مطلعِ الفجر » . فصاح هُلْدبرند والجزع مِلْء فؤاده : « إذن فلنَقْتَفِ أثرها ، أيها الأب ، ناشدتك الله ! » . فأجاب الشيخ : « وماذا يجدى كل هذا ؟ سأكون متجانفاً لإثمٍ إن تركتك تجرى وحدك فى الظلام والوحشة اقتفاءً لأثر هذه الفتاة المجنونة ؛ وحتى لو عرفنا الاتجاه الذى اتخذته ، فإن سيقانى الهرمة لن تقوى على اللَّحاق بهذه الطائشة » . فقال هلدبرند : « فلننادِها إذن على

الأقل ، ولنهِبْ بها أن تعود » ، ثم أخذ ينـادى بصوت كثير التـأثر ، شديد التأثير : « أندين ! أندين ! عودى ! عودى إذن ! » فأنغض الشيخُ رأسه قائلا إن هذه الصيحات ستذهب سدى ، وإن الفارس لا يعلم إلى أى مدى هى عنيدة . ولكنه لم يتمالك من أن يرسل بين حين وآخر هذا النداء فى أعماق الليل « أندين ! حبيبتى أندين ! أتوسل إليك أن تعودى ، عودى هذه المرة على الأقل ! » .

ولـكن حدث ما توقعه الصياد . فلم يسمع لأندين صوت ولم ير منها شىء ، ولما كان الشيخ لم يشأ مطلقاً أن يدع هلدبرند يذهب وحده سعياً وراء الهاربة ، لم يكن أمامهما إلا أن يعودا معاً إلى الـكوخ . وهنا وجدا نار الموقد على شفا الانطفاء ، ووجدا ربة البيتِ قد أوَت إلى فراشها ، فهى لم تهتم بفرار أندين اهتمام زوجها ، ولم تَقدُر ما عسى أن تلقاه من خطر ، كما فعل . فَحَضأ الشيخُ النارَ كى تتقد ، وعالجها بالخشب الجاف حتى انبثق اللهيب من جديد ، ثم أتى بكوز من النبيذ وضعه بين مضيفه وبينه . « وأنت أيضاً ، أيهـا السيد ، قَلِق على هذه الفتاة الحمقاء ؟ ألا فلنقض شطراً من الليل نتحدث سوياً ونشرب خيراً من أن نتقلب عبثاً على الحصير سعياً وراء النوم . فما رأيك فى هذا ؟ » فقبل هلدبرند عن طيب خاطر ؛ وقدّم إليه الصياد مجلس الشرف بعد أن خلّفته ربة البيت ، وشرب الاثنان سوياً وتحدثا معاً حديثاً يليق برجلين ذَوَىْ شجاعة وثقة . ولا شك

فى أن أحـدهما أو الآخر كان يقول ، حين تحدث أقل حركة خلف النافذة ، وأحياناً حين لايحدث شيء : « ها هى ذى ! » ويطلان لحظة صامتين ، ثم يُنْغضان الرأس متنهدين حين لا يظهر شيء ، ويتابعون الحديث .

ومع هذا لم يكن فى وسعهما جميعاً أن يفكرا فى شيء آخر غير أندين ؛ فلم يجدا إذن خيراً من أن يستمع الفارس إلى حديث الصياد الشيخ وهو يقص عليـه كيف جاءته أندين ، وأن يقوم الصياد نفسه بهذا القصّ . أنشأ الصياد يقول :

« كان ذلك منذ خمسة عشر عاماً حين كنت فى طريقى يوماً إلى المدينة ومعى بضاعتى أجوس خلال الغابة الرهيبة . أما امرأتى فقد بقيت فى المنزل كعادتها ، فضلاً عن أنه كان ثمة داع آخر وجيه ، ألا وهو أن الله كان قد وهبنا ، ونحن فى السن المتقدمة التى كنا عليها ، طفلة رائعة الجمال . كانت بنتاً ؛ فتساءلنا عما إذا لم يكن من الأفضل ، حرصاً على سعادة الوليدة الجديدة ، أن نغادر شبه جزيرتنـا الجميلة ، كى يكون فى الوسع ، حين تأتى اللحظة المنـاسبة ، أن ننشّيء ، فى مكان أكثر عمراناً ، تلك الهبةَ العزيزة التى مُنِحناها من السماء . أجل ، إن الأمور لا تسير عندنا معشرَ الفقراء كما قد يخيل إليك أيها السيد ؛ ومع ذلك فعلى الانسان ، يا لله ، أن يفعل كلّ ما يستطيع . وهكذا كنت أُجيل هذه المسألة فى ذهنى طوال الطريق ، فأنا أحب شبْه الجزيرة من أعماق قلبى ، حتى أنى حينما كنتُ أمرّ خلال

ضوضاء المدينة ولَجَبها كنت أصيح : « فى مثل هذا الضجيج سيكون مقامك عما قريب ، أو على الأقل فى مكان لن يكون أكثر منه هدوءاً ! ولكن هذا لم يدعنى أشكو إلى الرحمن ، بل حَمِدْته فى قلبى على أن منحَنا هذه الطفلة ؛ وسأكون كاذباً إذا قلت إن شيئاً قد حدث لى فى الغابة أكثر مما كان يحدث عادة ، إنْ فى ذهابى أو حين إيابى . فضلاً عن أنى لم أكن قد رأيت فيها مطلقاً شيئاً يثير مخاوفى . فقد كان الله معى فى هذه الظلال الغريبة » . وما تفوه بهذه الكلمات الأخيرة ، حتى نزع قبعته الصغيرة وظل عارى الرأس الصلعاء ، يدعو صامتا ؛ ثم غطى رأسه من جديد ، وعاد يسوق الحديث : « ومن هذه الناحية من الغابة ، أوَّاه ، ! من هذه الناحية ، التقى بى المكروه . فقد أقبلت علىَّ امرأتى وعيناها تفيضان بالدموع كالينبوع ، وقد لبستَ السواد : « إلهى ، هكذا صِحْت فيها فى أنين ، أين طفلتنا العزيزة ؟ أين هى ؟ تكلمى ! » فأجابت : « إنها عند مَنْ تدعوه ، أيها الزوج العزيز » ، ودَلَفنا إلى الكوخ باكيَيْن. فلما بلغناه دنوت أفتش عن الجثة الصغيرة ؛ وهنا عرفت كيف حدث ما حدث . فقد كانت امرأتى جالسة على حافة البحيرة ومعها الطفلة تداعبها ، وكانت مُفْرخَة الرَّوْع قريرةَ النفس . وفجأة أطلت الطفلة وكأنها رأت فى الماء شيئاً رائع الجمال . وها هى ذى امرأتى لا تزال ترى وهى تبسم ذلك الملَك العزيز ، وتتقدم بيديها الصغيرتين كى تمسك بشىء ؛ وفى اللحظة عينها ، وبحركة

مفاجئة سريعة ، مرقت الطفلة من بين يديها وسقطت فى مرآة الماء ، وبحثت كثيراً عن الطفلة الغارقة ؛ ولـكن عبثاً ، إذ لم يكن قد بقى منها أثر . « وفى مساء ذلك اليوم كنا جالسَين ، امرأتى وأنا ، وقد صرنا بعدُ بلا ولد ، كنا جالسين فى الـكوخ صامِتَيْن ، إذ لم يكن لنا قِبَلٌ بالكلام ، حتى لو يَسَّرته لنا الدموع ؛ بل ظللنا هناك ، وعيوننا على نار الموقد . وفجأة سمعنا من الخارج نقراً على الباب ، ثم فتح بغتة ووقفت بالوصيد فتاةٌ صغيرة تقرب من الثالثة أو الرابعة ، رائعة الجمال ، مزينة أنفس زينة ، وعلى وجهها ابتسامة . فبقينا صامتين من الذهول ، ثم بدأتُ أساءل نفسى عما إذا كان ذلك مخلوقاً إنسياً صغيراً حقاً ، أو كان شبحاً خيالياً . غير أنى رأيت الماء يَسَّاقَط من شعرها الذهبى وثيابها النفيسة ، فحسبت أن هذه الفتاة الجميلة لا بد أن تكون قد سقطت فى الماء ؛ وهى فى حاجة إلى العناية . فقلت لامرأتى : « زوجى ، لم يستطع أحد أن ينقذ طفلتنا العزيزة كى يحفظها لنا ، ألا فلنفعل للآخرين ما كان سيحقق لنا الفردوسَ على الأرض ، لو أن أحداً استطاع أن يفعله من أجلنا » . فخلعنا ملابس الطفلة وأرقدناها فى السرير ، وأعطيناها أشربة حارة ، دون أن تفوه بكلمة ؛ وإنما كانت تتفرّسنا بعينيها الزرقاوين زرقة البحيرة وزرقة السماء ، واللتين كانتا تبسمان لنا باستمرار .

« وفى صبيحة الغد ، أيقنا بأنها لم تصب بسوء ، فسألتها

حينئذ مَنْ هُم أهلها ، وكيف جاءت هنا . غير أنى لم أظفر منها إلا بقصة غامضة غريبة حقاً . ويبدو أنها لا بد قد وُلدت بعيداً جداً عن هنا ، لأنى لم أعرف حتى الآن شيئاً عن أصلها طوال هذه الخمسة عشر عاماً ، فضلا عن أنهـا تقول بين حين وآخر أشياء شاذة غريبة لدرجة أن المرء ينتهى إلى أن يسأل نفسه عما إذا لم تكن قد هبطت من القَمر . فهى تحدثك عن قصور من الذهب ، وسقوف من البَلّور ويعلم الله أى شىء آخر أيضاً . وأوضح ما قالته أنها كانت تتريض وأمّها فى بحيرة كبيرة ، ثم سقطت من الزورق فى الماء ، ولم يعد إليها رشدها إلا هنا تحت الشجر حيث شعرت هنـا ، فى هذا الشاطىء البهيج ، أنهـا رخية البال .

« لقد بقى فى الفؤاد مع هذا هم كبير . فقررنا سريعاً أن نحتفظ بالطفلة اللقيطة وأن نربيها ، بدلا من طفلتنا العزيزة الغارقة ومكانها . ولـكن كيف السبيل إلى معرفة ما إذا كانت قد عُمِّدت أو لم تعمّد ؟ إنها هى نفسها لم تستطع أن تشير إلى شىء من هذه الناحية . أما أنها مخلوقة برئت لكى تمجد الله وترضيه فهذا ما كانت تعلْمُهُ حق العلم ، وهذا كان جوابها عادة ؛ وكانت على استعداد لكى تـكرّس نفسها لكل ما من شأنه تمجيد الله وإرضاؤه .

« ففكرنا ، امرأتى وأنا ، على النحو التالى : إذا لم تـكن قد عُمِّدت ، فلا مجال للتردد ؛ وإذا كانت ، فالزيادة فى الخير

أقل خطراً من القلة . فبحثنا إذن عن اسم يناسب الطفلة التى ما كنا نعرف بعد كيف نناديها . وأخيراً فكرنا فى أن اسم دورتيه هو أنسب الأسماء لها ، لأنى سمعت مرة أن معناه : عطية الله[1] ، والله قد أرسلها لنا هبة ، عزاء لنا عن مصابنا الأكبر . ولكنها لم تشأ ذلك ، قائلة إن أهلها سموها أندين و إنها تريد أن تستمر على هذا الاسم . ولكن بدا لى أن هذا الاسم وثنى ، لا يوجد فى أى تقويم ؛ فسعيت إلى المدينة كى أستشير قسيساً[2] . وهذا لم يرض هو الآخر باسم أندين ؛ و بعد رجاء مُلِحّ جاء معى خلال الغابة الغريبة المُستَسِرّة حتى هذا الكوخ كى يحتفل بتعميدها . وهنا بدت لنا الطفلة فاتنة الزينة رائعة الجمال حتى إنها سرعان ما استولت على قلب القسيس ، واستطاعت أن تغريه بلطف ورقة ، وأن تتأبى عليه بلباقة مرحة ، حتى إنه فقد فى النهاية كل حجة تسلح بها ضد اسم أندين . فعمِّدت إذن باسم أندين ، وكان موقفها طوال المَرْسَم المقدس صائباً بديعاً إلى درجة غير عادية ، على الرغم مما هى عليه من توحش وشذوذ . لأنها فيما يتصل بهذا

---

(١) لأن اللفظ « دوروتيه » مأخوذ من الكلمتين « اليونانيتين » « دورون » δῶρον أى عطية وهبة ؛ « وثيا » Θεά أى إلهة ، أوثيوس » وجعلت الكلمة فى صيغة التأنيث للدلالة على الأنثى .

(٢) لاحظ هنا الروح المسيحية الدينية التى تشيع فى المؤلف وفى الرومنتيك عامة ، فى مقابل الروح الوثنية التى شاعت فى نفوس أصحاب النزعة الكلاسيكية . فهنا رمز للتعارض بين كلتا النزعتين .

التوحش والشذوذ كما تقول امرأتى تماماً ، وكم احتملنا منها ! واذا شئت أن أقص عليك . . . » .

وهنا قاطع الفارس الصياد كى يوجه انتباهه إلى ضجة كانت تغطى حيناً على صوت الشيخ ، ضجة ماء يساقط كالأمواج القوية العنيفة بشدة تزداد عنفاً على نوافذ الكوخ .

فهرع الاثنان إلى الباب ، فرأيا حينئذ ، على ضوء القمر الذى بدأ يطلع ، الجدول وقد فاض بعنف وسال ساحباً وراءه الأحجار والجذوع بشدة دوّاماته ، ثم انبعثت العاصفة من الغيوم الليلية مطاردة إياها كالسهمان أمام القمر ، وكأنها قد أيقظتها هذه الضجة ، وجلجلت البحيرة تحت ضربات أجنحة الريح . وناح الشجر فى شبه الجزيرة من الجذور حتى الأعالى ، وانحنت تحت المياه المنطلقة ، وكأنها قد أصيبت بدوار . وهنا صاح الرجلان فى جزع : « أندين ! لله ، أندين ! » ولكن صوتاً لم يجب نداءهما ، فاندفعا لا يحدوهما أى اعتبار آخر ، خارج الكوخ باحثين مناديين كلٌّ من ناحيته .

الفصل الثالث

كيف وجدا أندين من جديد

ولكن الجزع أخذ يملك نفس هلدبرند و يزداد عنفاً كلما أمعن فى البحث دون أن يصل إلى شىء فى هذه الليلة الظلماء . فبدأت تستولى على عقله فكرة أن أندين لم تكن إلا واحدة من تلك الرؤى التى

تبدو فى الغابة ؛ بل إنه قد بدأ يخيل إليه ، وسط هدير الأمواج وهزيز العاصفة وقصيف الأشجار ، وتحت تأثير هذا التغير الهائل الذى أصاب تلك البقعة ، وقد كانت هادئة وادعة منذ قليل ، أن شبه الجزيرة كله بما فيه الكوخ وساكنوه لم يكن غير سراب، وأن قد لذ لخياله أن يعبث به . غير أنه كان يسمع دائماً صوت الصياد من بعيد وهو ينادى فى لهفة وجزع : « أندين ! » ، كما كان يسمع أغانى زوجته العجوز تنفذ إليه خلال الضجيج .

وانتهى به المطاف إلى شاطىء النهر الفائض ، فرأى فى ضوء القمر كيف شق هذا طريقه الأرْونانى على طول الغابة المروِّعة ، فأحال لسان الأرض إلى جزيرة . فقال فى نفسه حينئذ : إلهى ، ماذا يكون الأمر إذا كانت أندين قد تجاسرت على النفوذ داخل الغابة المخيفة ، مدفوعة فى أغلب الظن بعنادها الرشيق ، لأنى لم أشأ إرضاء حب استطلاعها ، بينا السيل ينحدر فيما بينها و بيننا ، و إذا كانت تبكى على الشاطىء الآخر وسط الأشباح ! وانطلقت منه صرخة فزع ثم تدحرج على طول الأحجار وجذوع الصنوبر المجندلة ، كى يلج السيل المندفع مجتازاً إياه عبوراً أو سباحة ، باحثاً عبْرَ النهر عن فتاته الضالة . ولكنه تذكر فى نفسه ما رآه من قبل على ضوء النهار من كل مخيف مريع تحت هذه الغصون التى صفِر الآن وتقصف . وكان يخيل إليه على وجه التخصيص أن رجلا أبيض طويلا يعرفه جيد المعرفة ماثلٌ أمامه عبر النهر متهانفاً يهز رأسه ؛ ولكن هذه التصاوير المخيفة هى نفسها

التي أهابت به بحرارة أن يجتاز النهر ، لأنه تخيل أن أندين لابد أن تكون من بين هذه التهاويل والأشباح ، وحيدة فريسة الجزع مميت .

فقبض على غصن صَنَوْبر صلب واعتمد عليه ، قاذفا بنفسه فى الأمواج المدوّمة ؛ وشق عليه كثيراً أن يتماسك . ولكنه مع ذلك استمر يتقدم فى شجاعة وثبات . وإذا بصوت بديع يهتف إلى جانبه : « خذ حِذْرك ، خذ حذرك ! إنه خَدَّاع غَدّار ، هذا العتيق ، هذا السيل ! » فتعرّفَ الفارس هذه النبرات العذبة ، ووقف مذهولا فى ظلال الغيوم التى غشّت على ضوء القمر ، وأصابه الدوار قبالة جريان الأمواج المندفع السائر حول أقدامه مارقا بسرعة السهم . ومع هذا لم يشأ الرجوع عن عزمه : « إذا لم تكونى هناك حقا ، وإذا لم تكونى غير غيمة تعبث بى ، فإنى أفضل عدم البقاء ، وأريد أن أستحيل مثلك إلى ظل ، أنت ياعزيزتى أندين ! » وبينا كان يهتف بهذه الكلمات ، كان يزداد توغلا فى السيل . « عُدْ ، أواه ، عُدْ إذن ، أيها الغُرانِق المجنون ! » هكذا تردد من جديد ذلك الصوت المجاور ؛ وما كاد يرنو من هذه الناحية حتى رأى ، على ضوء القمر الذى انحسر عنه الغيم ، وتحت غصون الأشجار ذات الأفنان المؤشّبة ، ووسط جزيرة صغيرة تكوّنت عن الفيضان — رأى ثمتئذ أندين راقدة قد انساب جسمها برشاقة على العشب المزهر ، وافتر ثغرها عن بسمات رقاق .

لا تسأل عن سرور الفارس الشاب حينذاك وهو يعتصى غُصْنَ الصنَوْبر ! فبقليل من الخطوات اجتاز التيار المدوّم فيما بينه و بين الفتاه ، و وقف إلى جوارها على رابية العشب ، وهى مأوى أليف وثيق يحْميه دوح معمّر ، وأغصان ذات حفيف . فاعتدلت أندين بعض الشىء ، وعانقت بذراعيها هلدبرند تحت هذه الخيمة من الأوراق الخضراء ، ثم جذبته ناحيتها إلى كرسيها الوثير ، وهمست اليه بصوت كله رقة وعذوبة : « هنا ستقص على قصتك ، أيها الصديق الجميل ؛ هنا ، حيث لا يسمعنا العجوزان الدائبان على التأنيب . وهذا السقف من الحفرة أوَ ليس عدْل كوخهم الحقير ؟» . فقال هلدبرند : «ها هنا الجنة» ! وضم بذراعيه الفتاة الشّموع وعلاها بأحر القبلات .

وهنا كان الصياد العجوز قد وصل هو الآخر إلى شاطىء السيل ؛ فصاح على ثبج الموج للشابين : « ها ، أيها السيد ، لقد رحبتُ بك كما يرحب رجل شريف بأخ شريف ، وها أنت مع ذلك ، وفى هذا الملاذ المستور ، تغازل ابنة متبناة ، فضلا عن أنك تركتنى أهيم فى جزع هناك وهنا باحثاً عنها خلال الليل ! فصاح الفارس : إنى وجدتها مُنْذُ لحظة واحدة ، أيها الأب الشيخ . . فقال الصياد : حسنا ، حسنا ، ولكن آتنى بها الآن وشيكا إلى الأرض اليابسة » .

ولكن أندين أعارت هذا كله آذانا صماء ، وصرحت بأنها تفضل الولوج فى الغابة الموحشة مع هذا الغريب الجميل على

العَوْد إلى الـكوخ ، حيث لا يسمع لها فيه رأى ، والذى سيغادره الفارس إن عاجلا أو آجلا . ثم راحت تغنى فى سحر لا يوصف وقد طوقت بذراعيها هلدبرند :

جرى الينبوعُ فى وادٍ نضيرٍ ناشداً سَعْدَه
غدا حتى أتى بحراً وما من بحره عَوْدَه

فكان جواب الصياد الشيخ عن هذا الغناء دموعاً مُرَّة ، ولـكن أندين لم يبدُ عليها من ذلك شىء من التأثر ، بل كانت تقبل حبيبها وتلاطفه حتى قال لها فى النهاية : « أندين ! إذا كان ألم هذا الشيخ لا يمس شغاف قلبك ، فإنه يمس شغاف قلبى . ألا فلنلحق به ! » فأشرعت نحوه عينين نجلاوين زرقاوين ، وقد تملكها الذهول ، وقالت بصوت متثاقل متردد : إذا كان هذا رأيك ، فليكن ، فإنى أرى صواباً كل ما تعتقد . ولـكن يجب أولا أن يقطع ذلك الشيخ الواقف هناك عهداً على نفسه بألا يحول بينك و بين أن تقص ما رأيت فى الغابة ؛ وعدا هذا ، أوه ! إن لهذا حديثاً آخر » . فصاح الصياد : « تعالى فقط ، تعالى ! » ولم يستطع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة ، غير أنه مد ذراعيه أمام الفتاة وحنى رأسه كما يعدها بتحقيق رغبتها ، مما جعل شعره الأبيض يهوى على وجهه بطريقة غريبة ذكرت هلدبرند بذلك الرجل الأبيض الذى كان يهز رأسه فى الغابة . ولـكن هذا الفارس الشاب لم يدع نفسه فريسة لأى اضطراب ، وأخذ الفتاة الجميلة بين ذراعية ، وحملها خلال المكان الضحل

الذى كان السيل يجتازه بشدة فيما بين الجزيرة الصغيرة والأرض اليابسة . وأقبل الصياد واثباً إلى جيد أندين ، مظهراً شديد سروره ، ضاماً إياها بين ذراعيه ؛ والزوجة هى الأخرى أقبلت واستقبلت فى كثير من التدليل فتاتها الضالّة . ولم يكن للتأنيب حينئذ مجال ، خصوصاًوأن أندين غمرت أبويها بالكلمات المعسولة والملاطفات البديعة ، ناسية ثورتها الأولى .

وحين آب كل إلى رشده بعد هذه النشوة من السرور ، كان الفجر يرف بأنواره الصافية على البحيرة ، وكانت العاصفة قد هدأت ، وصغار الطير تغنى بحبور على الغصون المبتلة . ولما كانت أندين قد أصرت على أن يقص الفارس القصة الموعودة ، أذعن الأبوان العجوزان لرغبتها هاتيك بابتسام وطيب نفس . وأحضر إليهم الفطور تحت الشجر القائم قرب البحيرة خلف الكوخ ؛ وهناك أخذوا مجلسهم مثلوجى النفوس ، أما أندين فلم تشأ إلا أن ترقد[1] على العشب تحت أقدام الفارس ، وبات هلدبرند يساقطهم هذا النحو من الحديث .

الفصل الرابع

ما جرى للفارس فى الغابة

كان[2] ذلك منذ ثمانية أيام تقريباً ، حين وصلتُ إلى المدينة

---

(١) تأمل هذه الحركات التى تقدم لنا عن أندين صورة عينيه ! .

(٢) لاحظ أن الحكاية تبدأ بهذه الكلمة المميزة للأقاصيص الشعبية .

العتيقة القائمة بأبراجها هناك فى الناحية الأخرى من الغابة . وبعد قليل ، أقيمت مباراة بالخيل والسلاح تلاها استعراض للخيول ، فخضت غمارها دون أن أضل بفرسى ولا برمحى . وفى اللحظة التى مددت فيها يدى بالخوذة إلى حامل سلاحى من خلفى بعد أن توقفت قرب الحلبة : كى أستريح قليلا من هذا النشاط المرح ، طرقت بصرى فتاةٌ رائعة الجمال فاتنة الزينة كانت واقفة فى إحدى الأروقة تتأمل المنظر . فسألت عنها جارى فأنبأنى أن هذه الفتاة الساحرة تدعى بِرْتَلْدَه ، وأنها الابنة المتبناة لاحد الدوقات الأثرياء القاطنين بهذا المكان . ولاح لى أنها هى الأخرى ترنو الىّ ، كما هى عادتنا معشر الفرسان الشبان . فإنى لما كنت قد أظهرت مهارة فائقة فى الركوب فى الصباح فقد أصبح لى الآن شأن آخر . إذ كنت فى المساء قرين برتلده فى الرقص ، وظلت الحال على هذا المنوال طوال أيام الاحتفال » .

ولكن ألماً حاداً فى اليد اليسرى التى تركها معلقة قطعت حديث هلدبرند ، وجذبت ناظره نحو موضع الألم . ذلك أن أندين قد عضت على بنان الشاب بضربة حادة من أسنانها اللطيفة ، وأبدت وجهاً مظلماً غاضباً . ولكنها نظرت فى عينيه فجأة بنظرة تتأرجح ما بين الود والحزن ، وهمست برقة : «أو لا تستحق ذلك !» ثم غطت وجهها ، وتابع الفارس الحديث وقد أخذه الذهول والتفكير كل مأخذ :

« يا لها من فتاة متكبرة عجيبة ، برتلده هذه . ففى اليوم

الثانى مباشرة لم ترقنى كما راقتنى فى اليوم الأول ، وفى اليوم الثالث بدرجة أقل ، ولـكنى بقيت مع ذلك على مغازلتى إياها ، لأنها كانت ألطف معى منها مع الفرسان الآخرين ، وشاء الحظ أن أسألها مازحا أحد قفازاتها . فأجابت: « نعم ، حين تأتى إلى فتقص على ما يجرى فى الغابة التى يقولون عنها إنها مسكونة ، بعد أن تـكون قد ذَهَبْتَ إليها وحدك » .

« ومع أنى لم أُوزع كثيراً بقفازها ، ولـكن ما قيل قد قيل ، والفارس الحريص على شرفه لا يدع مثل هذه الدعوة تتكرر وفيها امتحان لشجاعته .

— فقاطعته أندين قائلة : « أظن أنها أحبتك » .

— فأجاب هلدبرند : « كان يبدو عليها ذلك »

— فصاحت الفتاة ضاحكة : « ها ، يجب أن تـكون إذن حمقاء . ولـكن كيف يبعد المرء عنه من يحب ، وأ كثر من هذا ، يرسل به الى غابة يقولون إنها مسكونة ! لو كان الأمر أمرى ، لـكنت تركت الغابة وأسرارها فى شُغُل عنى » .

ثم تابع الفـارس حديثه باسما إلى أندين بسمة وُد : « فبدأت السير صبيحة أمس . وكانت جذوع الأشجار تنهض على الأرض ممشوقة القوام مرسلة ضياء من بريق أحمر فى نور الصباح الذى تجلى على العشب الأخضر ، وكانت الأوراق تهمس فيما بينها بسرور ومرح ، حتى إنى لم أتمالك من الضحك فى أعماق

فؤادى ، وأنا أفكر فى هؤلاء الذين كانوا يتوقعون شيئا غريبا مريبا فى مثل هذه الأماكن السارة . فقلت فى نفسى فى شىء من الثقة المسرورة : سرعان ما أخترق الغابة ذهابا وعودة . ولم أكد أسترسل فى هذه الأفكار حتى كنت فى وسط الظلال المخضرة ، ولم أتبين بعد شيئا من السهل الذى خلفته من ورائى . وحينئذ ، وحينئذ فحسب ، ثارت فى نفسى المخاوف ، المخاوف التى يبعثها سهولة ضلال المرء فى هذه الغابة الشاسعة الأرجاء ، وإن هذا لعله أن يكون الخطر الوحيد الذى يهدد هناك السائرين . فوقفت إذن ، وبحثت عن موضع الشمس التى كانت قد ارتفعت فوق الأفق قليلا فى تلك الأثناء . وما رفعت عينى ، حتى رأيت شيئاً أسود فى غصون سِنْديانة ضخمة . فقلت لنفسى : هذا دُبٌّ ، وبحثت بيدى عن سيفى ، وإذا بصوت يهبط إلىَّ من أعلى وكأنه صوت إنسانى ، ولكنه صاحل بغيض ، صوت يقول : «لو لم أدع الغصينات تسقط وأنا أعضّض الأفنان ، فعلى أى خشب ستُشوى فى منتصف هذا الليل يا سيدى الغرُّ ؟ » وتلت هذه الكلمات تقطيبات وضوضاء أغصان مُرْتَضَّة حتى إن فرسى نزا وحملنى معه قبل أن يكون فى وسعى أن أتبين ما عسى هذا الحيوان الشيطان أن يكون .

— فقال الصياد : « لا تنطق بهذه الكلمة » ، ورسم علامة الصليب ؛ وحذت زوجتُه حذوه فى صمت . أما أندين فقد نظرت إلى حبيبها بعين براقة ، قائلة : « إن أجمل ما فى هذه القصة هو

أنهم لم يشووه حقاً . ولكن استمر ، أيها الفتى الغُرانق ! » .

فواصل الفارس قصته : « فلما أجفل فرسى كان على وشك أن يصدمنى بجذوع الأشجار والأغصان ، وكان الخوف والحمو قد جعلاه يتصبب عرقاً ، ولم يشأ أن يذعن للوقوف . وأخيراً كان على وشك السقوط فى هوة محفوفة بالصخور حين خُيل إلىّ فجأة أن رجلا سامقا أغبر قد اعترض طريقه فى اندفاع ؛ فتملك الفزعُ حصانى حتى أنه توقف فُجاءةً ؛ فأخذته بيدى ، وتَبين لى حينئذ أن الذى أنقذنى لم يكن رجلا أبيض ، وإنما كان جدولا فضى الأمواج ينحدر إلى جوارى على هيئة شلال قليل المنحدر ، فأوقف بتياره المندفع نزوة جوادى .

— « شكرا لك ، أيها الجدول العزيز ! » هكذا صاحت أندين مُصفقة بيديها . ولكن الشيخ أطرق يفكر ، منغض الرأس ، منخفض العيون .

ثم استمر هلدبرند فى حديثه قائلا : « وما كدت أثب وأنظّم العِنان حتى رأيت إلى جانبى رُجَيْلا غريبا دقيق الشبح دميم الخلقة إلى الحد الأقصى ، لونه أصفرمسمرٌ ، ذا أنف لم تكن أصغر كثيراً من شخصه كله ؛ أضف إلى هذا ، أنه كان يَلوى شدقيه الفاغرين فى تقطيبات بلهاء ، ويكثر من الانحناءات والتحيات الموجهة إلىّ . فلما ضايقتنى كل هذه المساخر ، شكرت له بلهجة جافة ، وجعلت جوادى يدور نصف دورة ، وهو لا يزال يهتز وترتعد كل فرائصه ، ودار بخلدى أن أنشد مغامرة أخرى ،

أو طريق العودة إن لم يتيسر لى من ذلك شىء ، لأن الشمس كانت قد جاوزت السمت وانحدرت نحو المغيب إبان ركضى الجنونى . غير أن هذا القزَم عاد من جديد ووقف بإزاء جوادى بحركة سريعة سرعة البرق ، فقلت مغضباً : « أفسِح الطريق ، أفسح ، فإن هذا الفرس عنيد جموح ، و إلا وطىء جسمك — فتهانف هذا المسيخ ضاحكا بكل بلهوعته : ها ، ها ، اعطنى أولاً راشناً ، لأنى أنا الذى أوقفت حصانك ، ولولاى لكنتَ راقداً و إياه فى أعماق هذه الهاوية ، هُو ! — فأجبت : ولكن قف تقطيباتك وخذ هذه النقود ، على الرغم من أنك تكذب ، لأن ذاك الجدول الشهم هناك هو الذى أنقذنى ، لا أنت ، أيها التِّنبال المسكين » . وفى الوقت عينه رميت قطعة ذهبية فى القبعة الغريبة التى خلعها أمامى ، و بسطها إلىّ كالسائل . ثم سرت بفرسى جنباً ؛ ولكن القزم طاردنى بصيحاته ، وفجأة و بسرعة هائلة كان من جديد إلى جوارى . فاستحضرت فرسى ، فأحضر هو أيضاً إلى جانبى على الرغم مما بدا فى هذا السير من ارهاق له ، وعلى الرغم مما حمله جسمَه من التواءات وتشنجات غريبة ، مضحكة دميمة معاً ، وكان يحمل فى الهواء قطعة الذهب دائماً و يصيح فى كل فترة احضار : « ذهب زائف ! نقود زائفة ! نقود زائفة ! ذهب زائف ! » وكان هذا النُّعاب صادراً عن صدر أجوف لدرجة كان يبدو معها أنه فى كل صيحة لا بد أن يسقط على الأرض ، وكان لسانه الطويل الأحمر متدلياً على نحو مخيفٍ خارج فمه . فلما

بلغ مني الضيق مبلغه ، أوقفت حصاني ، وتساءلت : « ماذا تريد بصيحاتك ؟ هاك قطعة أخرى من الذهب ، بل هاك اثنتين ، ولكن دعني الآن في سلام » . وعاود من جديد انحناءاته المريعة وخنخن قائلا : « لا أريد ذهبا ، فما أبتغي من الذهب شيئاً ، سيدي الشاب ، فعندي الكثير جداً من تلك المهزلة ، وسأريك إياه الآن » .

« وفجأة بدت الأرض المخضرة وكأنها قد استحالت إلى زجاج من لون واحد شفاف ، والأرض المستوية إلى كرة مستديرة كنت أستطيع أن أتبين ما بداخلها . وفي داخلها رأيت حشداً من العفاريت تمرح وتلعب بلُعب من الذهب والفضة ، وتنقلب رأساً على عقب ، وعقباً على رأس ، مكونة صفوفاً دائرية ، وتنتهي بتقاذف مقذوفات من المعادن النفيسة ، وتمزح بنفخ تراب من الذهب على الوجوه . أما رفيقي الدميم فقد كان نصف جسمه في الداخل ، ونصفه الآخر في الخارج ، وجعل الآخرين يمدونه من أسفل بكثير جداً من الذهب الذي كان يرينيه ضاحكا ، ثم ينبذه ، وهو يرن دائما ، في أعماق الهاوية التي لا يسبر غورها . ثم أظهر قطعة الذهب التي أعطيتها إياه للعفاريت وهم في أسفل ، فاستغرقوا في الضحك وصاحوا في وجهي هازئين . وأخيراً مدوا جميعاً أصابعهم الحادة نحوي ، وهي ملطخة بتراب المعادن ، ثم زحفوا نحوي يهاجمونني بأذرعهم التي ازدادت جموحا واختلاطا وجنونا ، فاستولى على الجزع ، كما استولى من قبل

على حصـانى ، وأطلقت لفرسى العنان ضاربا بالمهماز جنبيه ، وفى هذا الركض الثانى الجنونى ، لم أعرف إلى كم توغلت فى الغابة [(١)] .

« ولما توقفت أخيراً من جديد ، شعرت بنفسى مغموراً فى المساء العليل ؛ وخلال الأغصان شاهدت شعباً أبيض يلمع ، ففكرت فى أنه لابد وأن يكون مؤدياً من الغابة إلى المدينة . فأردت أن أشق طريقى كى أصل اليه ، ولـكن وجهاً ناصع البياض غير واضح كل الوضوح ذا قسمات تتبدل باستمرار كان ينظر إلىَّ خلال الأوراق . حاولت حينئذ تجنبه ، ولـكن حيثما

(١) هـذا التصوير مأخوذ من ملحمة . وخلاصتها أن ثلاثة أجناس من الآلهة تتوزع العـالم ويناضل بعضها بعضاً من أجل السيادة المطلقة فيه : فى الأعماق الأرضية يسكن جنس النيبلنجن ، هؤلاء الأقزام ، أبناء الليل ؛ وهم ضعاف ولـكنهم خبثاء ماكرون ، يقومون بصهر المعادن وصنعها ؛ وعلى سطح الأرض الجامد الخشن يعيش العمالقة ، وهم جنس قاس يسيطر بالقوة الغاشمة ؛ وعلى قمم الجبال العالية ، وفى ضوئها الأثيرى الفاتن ، يقطن الآلهة الناعمون المالـكون النار ، العارفون بالنواميس الثابتة . وكل جنس من هذه الأجناس الثلاثة يتوق ويسعى إلى السيادة التامة ، وسلاحه أو بالأحرى ، غرضه من النضال الظفر بالذهب ، هذا الجوهر الذى يقوم على الحصول عليه الاستيلاء على ملك العالم (وإن كان المؤلف يسخر هنا منه) ، هذ الذهب الذى يجرى فى الأنهار ، خصوصاً نهر الرين ، كتراب براق ، وتستخدمه حوريات البحر فى ألعابهن . وقد أودع ڤوتان ، كبير الآلهة ، ذهب الرين فى حراسة ثلاث أنديناتِ هن : فوجلند وفلجوند ، وفلوسلد . فهذا الذهب يرقد مختفياً فى أعماق الأنهار ، تتلهى به الأنديناتِ .

والنزاع بين النيبلنجن للحصول على هذا الذهب موضوع القسم الأول من رابوع النيبلنجن ، أوبرا ڤجنر الرائعة .

توجهت فثمة هو . فقررت أخيراً وقد هاج هائجى أن أقذف بنفسى عليه مباشرة ؛ ولكنه أطلق موجة من الزَّبَد الأبيض فى وجه دابتى ووجهى ، مسدلا على أعيننا غشاوة . ومرغماً إيانا على الدوران . وظل الشيخ فى كل خطوة نخطوها ، يردنا عن الشِّعب ولم يسمح لنا بالسير إلا فى اتجاه واحد ؛ فاذا ماسرنا فيه ، كان فى إثرنا ، دون أن يصيبنا بشىء . وكنت أحيانا أدور بوجهى ناحيته ، فألاحظ حينئذ أن الوجه الأبيض المُزْبِد ينتسب إلى جسم أبيض كذلك فاحش الطول عملاق . وبين الفينة والفينة كان يخيل إلىّ أنه ينبوع ماء متجول ، دون أن يكون فى وسعى الوصول إلى يقين من هذه الناحية ، فلما بلغ بنا اللغوب مبلغه ، أنا والجواد ، أسلمنا قيادنا إلى الرجل الأبيض الذى كان يدفع بنا أمامه ، وهو يهز رأسه باستمرار وكأنه يقول : « وَيْهِ وَيْهِ ! » وعلى هذا النحو خرجنا فى النهاية من الغابة من هذا الطرف ، حيث رأيت العشب وماء البحيرة ، وكوخكم الصغير . هنالك اختفى العملاق الأبيض .

فقال الصياد الشيخ : « أحسن صنعاً بارتحاله » ، وبدأ يتحدث عن الوسيلة المثلى لضيفه كى يلحق بالمدينة ويعود إلى ذويه ؛ وهنا بدأت أندين تضحك ضحكة ضئيلة مختنقة ، لاحظها هلدبرند فقال : « كنت اعتقد أنك مسرورة برؤياى هنا ؛ فلماذا تغتبطين حين التحدث عن رحيلى ؟ »

— فأجابت أندين : « لأنك لن تستطيع الرحيل . حاول

إذن أن تجتاز السيل الفائض ، فى زورق أو على حصان ، أو وحيداً ، كما شئت . أو بالأحرى ، لاتحاول ، لأنك ستهشم بدنك بواسطة جذوع الأشجار والصخور التى يدفعها فى طريقه سريعة كالبرق . أما البحيرة ، فأنا عليمة بأمرها ؛ ووالدى لايستطيع التوغل فيها بزورقه » .

فنهض هلدبرند باسماً كيما يرى إذا كان الأمر كما قالت أندين ؛ واقتفى أثره الشيخ ورافقتهما الفتاة ، وهى تثب وتمرح إلى جوارهما . ووجدا حقاً أن الأمر كما قالت أندين ، وكان على الفارس أن يظل على هذه البقعة من الأرض التى استحالت جزيرة حتى ينقطع عنها السيل .

ولما عاد ثالوثهم إلى الكوخ بعد هذه الرحلة ، همس الفارس فى أذن الفتاة قائلا : « ها ! ماذا تقولين فى هذا ، ياصغيرتى أندين ؟ أغاضبة أنتِ لأنى باق ؟

— هُو ، دعنا من هذا ، هكذا أجابته فى شىء من الغضب ؛ إذا كنت لم أعضك ، فليت شعرى ماذا كنت ستحدثنا به بعدُ عن صاحبتك برتلده !

الفصل الخامس

كيف عاش الفارس فى شبه الجزيرة

لعلك أيها القارىء العزيز قد تهيأ لك أن تجد نفسك سعيداً هانئاً فى مكان ما بعد أن تشردت ماتشردت فى أنحاء العالم .

ثم تنبه فيك ماالدينا معشر الآدميين من حب فطرى لبيت خاص وحيـاة هادئة ؛ فبدا لك وكأن وطنك الصغير الذى درجت فى أحضانه قد ازدهر من جديد بكل أزهار الطفولة وأزهار الحب الطاهر ، منبثقا من القبور العزيزة الحبيبة ؛ و بدا لك أيضا أنك ستكون هنا رافه العيش ، فتقيم هنا كوخك . ولعل هذا كذلك أن يكون خطأ منك كفرت عنه من بعد أقسى كفارة . ولـكن لاعليك من هذا الآن ، وليس لك أن تفسد على نفسك هذه الذكرى بمرارة ماذقته من بعد . بل أعـد ذكر هذا الشعور العذب ، وردد من جديد هذه التحية الملائـكية المنبئة بالسلام ، هنالك تعرف تقريباً شعور الفارس هلدبرند أثناء حياته فى شبه الجزيرة .

لقـد لاحظ مراراً بسرور عميق أن السيل فى الغابة كان يدفع أمواجاً تزداد كل يوم عنفاً ، وأنه قد حفر لنفسه مجرى يتسع شيئا فشيئا باسطاً بهذا قليلاً قليلاً مدة العزلة فى الجزيرة . وكان يقضى شطراً من النهـار يذرع الناحية ومعه قوس عتيقة وجدها فى زاوية من زوايا الـكوخ فأصلحها ، مترصداً مرور الطيور ، عائداً بما يستطيع الظفر به منها كى يمد المطهى بقطع شهية للشواء . وحين كان يؤوب ومعه قَنِيصه ، لم تَعْدَم أندين دائماً تقريباً أن تنثنى عليه بالملام ، آخذة عليه أن يسلب هذه الـكائنات اللطيفة السعيدة الصغيرة حياتها الناعمة التى تحياها فى خضم الهواء الأزرق ، بسلبها حياتها بهذه الطريقة الوحشية ؛

وكثيراً ما كانت تبكي مر البكاء عند ما ترى هذه الطيور المائتة . ومع ذلك ، فإنه إذا أتى يوماً دون أن يظفر بشيء ، فإنها لم تكن أقل تعنيفاً له على فشله و إهماله وقلة مهارته مما يضطرهم إلى الاقتصار على السمك والأُرْبيان [1] .

وما كان أسعد قلبه بهذا الغضب الرشيق ، خصوصاً وأنها كانت تسعى عادة أن تصلح من حفيظتها الشريرة بكثير من الدلال والملاطفة العذبة . أما الشيخان فقد ألفا هذا الود بين الشاب والفتاة ، حتى كانا يعتبرانهما كخطيبين ، بل وكزوجين يسكنان و إياهما الجزيرة النائية ، كي يكونا عوناً لهما على تحمل أعباء الشيخوخة . ثم كان من شأن هذه العزلة أن تجعل الشاب هلدبرند يشعر بيقين أنه خِطْب أوندين ؛ وخيل إليه أنه ليس ثمة بعدُ عالمٌ آخر من الناحية الأخرى للأمواج المحيطة ، أو على الأقل لم يكن في الوسع بعد أن يكون على اتصال بأناسٍ آخرين . فإذا حدث أحيانا أن صهل الفرس وهو يرعى وكأنه يدعوه إلى مغامرات فُرُسانية جديدة ، أو حين كان شعاره في النبالة يرف بشدة على طراز السرج وجُلّ الجواد فينبهه بعنف ، أو حين كان سيفه الجميل يسقط غير مرتقبٍ من المشجب المعلق عليه في الكوخ منسابا في انحداره خارج غمده — حين كان يحدث هذا كله كان يُهدّىء رَوْع نفسه التي أهاجها الشك حينا ، قائلاً لها : إن أندين ليست مطلقاً ابنة صيادين ، و إنها بالأحرى وكما

(١) هو المعروف باسم « الجمبرى » .

يُرجح كل الترجيح ابنة أسرة من الأسر الأجنبية العريقة فى النبالة . أما الشىء الوحيد الذى لم يكن له قِبَلٌ به حقاً فهو حين كانت العجوز توبخ أندين فى حضرته ؛ حقاً إن هذه الفتاة العجيبة كانت كثيراً ما تضحك من كل هـذا التبكيت ملء شدقيها ، ولـكن كان هذا بالنسبة إليه نوعاً من المساس بشرفه . ومع هذا فلم يكن فى وسعه أن يرى الخطأ فى جانب امرأة الصياد ، لأن أندين كانت تستحق من اللوم أكثر مما كانت تلقى عشر مرات ؛ ولذا استبقى عطفه الودى نحو ربة البيت ، واستمرت حياتُهم الأربعةِ تسلك سبيلها فى يُسْر وهناء .

ولـكن أتى يوم حدث فيه ما جعلها تضطرب . ذلك أن الصياد والفارس قد اعتادا الابتهاج سوياً أمام ابريق من الصهباء بعد طعام الغذاء ، وحين تعصف الريح فى الخارج فى المساء ، كما كان يحدث عادة دائما عند ما يقبل الليل . غير أن ما اختزنه الصياد قليلا قليلا فى السنوات السابقة إلى جانب ما كان يأتى به من المدينة قد نفد ، مما ضايق الرجلين أشد الضيق ، فكانت أندين تسخر منهما سحابة النهار ألذع سخرية ، بينا هما لم يعودا يشتركان كما كانت عادتهما فى هذا المزاح . فخرجت قبيل المساء من الـكوخ كى تفر ، كما قالت ، من هذه الوجوه المملة . ولـكن لما كان الأصيل قد بدا منذراً من جديد بالعاصفة ، والماء زمجر وأرعد ، وثب الفارس والصياد مذعورين الى الباب بحثاً وراء أندين كى يعيداها الى الـكوخ ، ذاكرين مخاوفهم فى تلك الليلة

التى وصل فيها هلدبرند ، ولـكنهما رأيا أندين تقفل راجعة فى مواجهتهم ، وعلى وجهها عذوبة ، ويداها فى تصفيق . «ما تعطوننى اذا زودتكم بالخمر ؟ أو بالأحرى ، هكذا قالت متابعـة حديثها ، لستم فى حاجة الى أن تعطونى شيئاً ، لأنى سأكون قد كوفئت أحسن مكافأة إذا أبديتم لى وجوهاً باسمـة ، وطافت بنفوسكم أفكار أكثر بهجة مما كان لديكم إبان هذا النهـار الطويل . تعالَوا معى . فان السيل قد غادر على الساحل بِرْميلا ؛ وأريد أن تحكموا على بنوم أسبوعٍ كامل إذا لم يكن برميل خمر » . فتبعها الرجلان ، ووجدا حقاً ، فى جون من الساحل مطرز الحواشى بالعوسج ، برميلا ظهر لهما أنه يحوى المشروب النبيل الذى كانوا يتحرقون اليه . فأسرعا أولا بإدارته دحرجة حتى الـكوخ ، لأن عاصفة ثقيلة قد هبت فى الأفق المجلل بظلمة المساء ، وكان فى وسع المرء أن يشاهد على ضوء الأصيل أمواج البحيرة وهى تهز ثبجها الأبيض ذا الحُباب ، وكأنها تقبـل على المطر الذى أوشك أن ينقض عليها . وساعدتهما أندين بكل ما أوتيت من قوة ، وحين اقتربت الزوبعة بسرعة شديدة وهى تزأر ، صاحت فى الغيوم الثقيلة بلهجة فيها تهديد لطيف : « ها ، حذار أن تبللنا ، فلا زلنا بعيدين عن شىء نلوذ به » . فعنفها الشيخ على هذه الـكلمات كإهانة آثمة . ولـكنها ابتسمت على استحياء فى شىء من الرقة ، وفعـلا لم يكن من ذلك شر لأحد . بل على العكس ، عاد الثلاثة بغنيمتهم إلى الدار الحبيبة ، دون أن تعلق

بهم قطرة . وبعد أن انتهوا من فتح البرميل والتحقق من أنه يحتوى خمراً ذات شأن عظيم ، بدأ المطر ينبثق من الغيوم المظلمة ، وعصفت الزوبعة بشدة خلال قمم الأشجار وفوق أمواج البحيرة الهائجة .

وسرعان ما ملئت بعض الزجاجات من البرميل العظيم الذى كان يبشر بمؤونة أيام عدة ، وبقى الكل جالسين يشربون ويمزحون حول لهيب الموقد الراقد هادئاً فى حمىً من كل عاصفة تجلجل . ولكن الصياد الشيخ أخذه الجد فجاءة وقال : « إلهى ! نحن هنا نتمتع بهذه الهبة النبيلة ، ولكن مالك هذا البرميل من قبل ، هذا الذى اغتصبه منه السيل ، لا بد إن يكون قد فقد حياته العزيزة عليه . — فقد الحياة ؟ لماذا ؟ » هكذا قالت أندين ، وصبت الخمر فى ابريق الفارس . ولكن هذا قال : « أقسم بشرفى الأقدس ، أيها الأب الشيخ ، أنى إذا عرفت كيف أجده وأنقذ حياته ، فإنى لا أتردد مطلقا فى أن أقذف بنفسى فى الليل البهيم ، مقتحماً كل الأخطار . وفى وسعى أن أؤكد لك هذا على الأقل : وهو أنى إذا قدر لى أن أرى أماكن مأهولة بالسكان ، فإنى سأعرف كيف أجده ، هو أو ورثته ، وأعوضهم عن هذه الخسارة ضعفاً أو ثلاثة أضعاف[1] » . فسرّت هذه الكلمات

(١) هنا لمحة من لمحات الفروسية التى يلذ للمؤلف أن يتغنى بها ، مصوراً بها مثله الأعلى المستوحى من فروسية العصر الوسيط . وفى هذا إنما يتحدث المؤلف عن نفسه ، أو ما تصبو إليه . فضلا عن أن كلام الشيخ ،

الشيخَ ، فهز رأسه للفارس مثنياً عليه ، وأتى على كأسه ، وهو مرتاح النفس مستريح الضمير . ولكن أندين قالت لهلدبرند : « أما فيما يتصل بالتعويض وبمالك من ذهب ، فافعل ما تشاء . أما الذهاب سعيا وراء الناس ، مما تحدثت عنه ، فهذا حمق منك أن تتكلم على هذا النحو ، فإن عيونى ستذوب عبرات إذا اختفيتُ هكذا ؛ وأنت ، أو لاتود حقا ، أنت أيضا ، ألاتبتعد عنى وعن هذا الخمر النفيس ؟ » . — فأجاب هلدبرند باسما : « بلى ، حقا » — . فاستمرت أندين : « إذن لقد قلتَ نُكْراً . لأن كُلاًّ فى الحياة يعمل لنفسه ، وماذا يعنى المرء من أمر الآخرين ؟ » فأشاحت الزوجة العجوز بوجهها عن أندين متأوهة تنغض رأسها ، وخرج الصياد عما اعتاده من تسامح مع الفتاة اللطيفة وانتهرها قائلا فى ختام حديثه : « أولا يقول عنك من يسمعك تقولين هذا إنك تربيت عند الكفار والوثنيين ؛ سامحنا الله ، أنا وأنت ، أيتها الابنة الخبيثة » . — فأجابته أندين : « ماذا تريد ! هذا شعورى ، أيّاً ما كان من أمر هؤلاء

هذا الكلام العابق بالتقوى البريئة السلبية ، يثير فى نفسك ذكرى ورع العصور الوسطى . وأندين تمثل هنا روح العفريت أو الشيطان الذى لا يمكن أن ينفصل عن روح العصور الوسطى ، إذ هو عنصر جوهرى فى تركيبها ، يلعب دوراً خطيراً فى تكوين طابعها الأسيان .

فكأننا هنا إذن بإزاء لوحة بارعة تامة الأجزاء للقوى الفعّالة المكونة لروح العصور الوسطى ، تلك الروح التى هفت إليها وإلى احيائها أرواح هؤلاء الرومنتيك .

الذين نشأونى ، وماذا تستطيع أن تفعل فى هذا كل كلماتك ؟ ».
— فأجاب الصياد محتداً : « صه ! » ، أما هى فقد أخذت الرّعْدة تدب فى نواحى جسمها كله ، وربضت مرتعشة على صدر هلدبرند ، وسألته فى صوت خفيض : «أغاضب أنت كذلك أيها الصديق الجميل ؟ » . فضغط الفارس على يدها الصغيرة الناعمة ولاطف شعرها المُزَرْفَن[1] ، ولم يستطع أن يفوه بشىء ؛ فقد كان مغضبا من قسوة الشيخ على أندين حتى إنه ارتج على فمه . وهكذا وجد كلا الزوجين نفسه الواحد فى مواجهة الآخر وقد خيم عليهم صمت حيران .

الفصل السادس

زواج

وخلال هذا الصمت رنت على الباب نَقْرة أشاعت الخوف والرّعدة فى نفوس ساكنى الكوخ أجمعين . فالنفس يروعها أحيانا حادث تافه إذا ما حدث بطريقة غير منتظرة ، أضف إلى هذا أنهم كانوا على مقربة شديدة من الغابة المريعة ، وأن شبه الجزيرة قد بدا غير ميسور أن يصل إليه إنسان . فتبادل الجميع نظرات متسائلات ، وتكرر القرع مشفوعا بتنهد عميق . فنهض الفارس كى يمسك بسيفه ، ولكن الشيخ قال له فى صوت خفيض :

(١) زَرْفَنَ شعره : جعله كالزرافين ، وهى الحَلَق الصغيرة ، وأحدها زِرْفين بكسر الزاى .

« لن يكون لسيفك أدنى فائدة اذا كان ذلك ما أخشاه » .
وكانت أندين قد تقدمت إلى الباب فى تلك الأثناء ، وصاحت بلهجة ملؤها الغضب والتحدى : « إذا كنتم قد أتيتم هنا ، يا أرواح الأرض ، لكى تعبثوا عبثكم ، فان كيلبورن سيريكم كيف تحسنون السلوك » . فزادت هذه الكلمات الغريبة من فزع الآخرين ، وتأملوا خائفين وجه الفتاة ، وأوشك هلدبرند أن يستجمع كل شجاعته كى يسألها ، حين جاء الصوت من خارج يقول : « لست مطلقا روحا عنصرية ، أنا روح أجل ، ولكنى روح لا تزال تسكن بدنها الأرضى . فاذا رغبتم فى مساعدتى ، واذا كنتم تخافون الله ، أنتم ياسكان هذا الكوخ ، فافتحوا لى » . وما تفوه بهذه الكلمات حتى فتحت أندين الباب وتقدمت بضوء المصباح فى الليل العاصف ، حتى كان فى وسع المرء أن يتبين فى الخارج قسيساً عجوزاً ، ما كاد يرى هذه الفتاة الرائعة الجمال حتى أجفل مرتاعا . ودار بخلده حينئذ أن يكون هنا بإزاء خيالات وأعمال سحرية ، ما دام قد رأى شبحا رائعا فاتنا يطل من باب كوخ حقير ، ولذا أنشأ يصلى و يدعو : « كل الأرواح الطيبة تمجد الرب الإله ! » فقالت أندين باسمة : « لست شبحا ، وهل لى مثل هذا المظهر الخبيث ؟ وفى وسعك كذلك أن تلاحظ أن الآيات الصالحات لا تثير فى نفسى خوفا [1] . انى لست جاهلة الله ، وعندى القدرة أيضا على

(١) لأنها من الجن ، وهم لا يتأثرون بتعويذات البشر ، ولكنهم يمجدون الرب .

تمجيده وحمده : فكلٌ يمجّده على طريقته ، أجل ، ومن أجل هذا برانا . تقدم ، أيها الأب المحترم ، فأنت قادم على أناس كرماء»

فدخل القسيس منحنياً ، وأجال نظره فى البيت ، وكان طَلْق المحيا ، عليه سيما الوقار . غير أن الماء كان يسّاقط من كل ثنيات ثوبه الأسود ، ولحيته الطويلة ، وزرافين شعره البيضاء . وقاده الصياد الفارس إلى غرفة جانبيـة وأبدلوا بثيابه أخرى ، وأرسلوا ثيابه هو إلى النسوة اللائى بقين فى الغرفة الرئيسية كى يقمن بتجفيفها . فلمـا رأى القسيس هذا الاستقبال الحسن ، قضاهما حق الشكر بعبارات هى الغاية فى التواضع والود . ولـكنه لم يشأ بأية حال أن يتدثر بالمعطف البراق الذى قدمه اليه الفارس، وفَضل عليه دُرّاعة قديمة غبراء للصياد . ثم دخلوا جميعاً الغرفة الرئيسية ، فتخلت ربة البيت فى الحال عن كرسيهـا الـكبير للقسيس ، ولم تذق الراحة إلا بعد أن جلس عليه ، «لأنكَ ، هكذا قالت له ، رجل متقدم فى السن ، منهوك القوى ، وفضلا عن هذا قسيس» . ودفعت أندين تحت أقدام الضيف ذلك الـكرسى الذى اعتادت الجلوس عليه إلى جوار هلدبرند ؛ وتبدت فى منتهى اللياقة واللطف فى كل ما أظهرته من احترام نحو هذا العجوز الطيب . فهمس هلدبرند فى أذنها شيئاً من المداعبة حول هذا ، ولـكنها أجابت بكل جدّ وحزم : «إنه يخدم مَنْ خلقنا جميعاً ، فليس المجال هنا مجال مزاح» .

ثم دعا الفارسُ والصيادُ القسيسَ إلى تناول شىء من

المطعومات ، و بعض من الخمر كي يستعيد قواه . وما استعاد نشاطه ، حتى أنشأ يقص عليهم كيف أنه اضطر عشية أمس الدابر أن يغادر ديره القائم بعيداً إلى الناحية الأخرى من البحيرة ، من أجل أن يبلغ مقام الأسقف كي ينبىء هذا بنبأ البلوى التي حلت بالدير والقرى الملحقة به ، بسبب الفيضانات الهائلة التي حدثت في هذه الأيام الأخيرة . و بعد كثير من الالتواءات من أجل تجنب هذه الفيضانات نفسها ، رأى نفسه مع ذلك مضطراً في هذا اليوم إلى اجتياز ذراع من أذرعة البحيرة الفائضة بمعاونة ملاحين مهرة ، وذلك عندما أقبل المساء . ثم تابع الحديث قائلا : « ولكنا لم نكد نسلك سبيلنا في الماء حتى انطلقت عاصفة مريعة لاتزال تقصف حتى الساعة فوق رءوسنا . و بدا كأن الموج لم يكن ينظر شيئاً غيرنا كي يجرّ بنا في رقص مدوّم بطريقة جنونية هائلة . وعما قليل ، انتُزعت المجاديف من أيدي الجادفين وطفت محطمة مدفوعة بالأمواج باستمرار . ونحن أيضا قد دُفع بنا عارين من كل سلاح ندفع به عن أنفسنا قوى الطبيعة العمياء التي صرنا فريسة لها ، دفع بنا في اتجاه أعلى البحيرة نحو ساحلكم القاصي الذي كنا نراه مرتسما بين الغيوم والأمواج ذات الزبَد . وأخيراً ، أُخذ زورقنا في دوامة تزداد شدة ودُوارا . فهل عاد ؟ وأين قذف بي ؟ لست أدري . إنما كنت أطفو وملئي جزعٌ مظلم من موت مريع قريب الوقوع .

وطفوت بعيداً بعيداً ، حتى قذفت بى موجة إلى هنا تحت الشجر، فى جزيرتكم هاتيك .

— أجل ، جزيرتنا ، هكذا ردد الصياد . لقد كانت منذ قليل لسانا من الأرض ؛ أما الآن ، ومنذ أن بدا وكأن السيل والبحيرة قد أصابهما جنون ، فقد تغير كل شىء لدينا .

— لقد شعرت بهذا ، هكذا قال القسيس ، حين كنت أتقدم خبط عشواء فى الليل على طول الماء ، ولا ألقى فى كل مكان غير غليانات صاخبة وحشية ، إلى أن رأيت فى النهاية طريقاً جيد الاختطاط يفنى فى هذا العجيج . وحينئذ أبصرت ضوءاً فى كوخكم هذا ، فتقدمت من هذه الناحية ، وعجزت عن شكر الهى فى السماء الذى هدانى أيضاً إلى أناس صالحين مثلكم بعد أن أنقذنى من الماء من قبل . فحمدته بقدر ما كنت لا أستطيع أن أعرف ما إذا كان سيقدر لى فى هذه الحياة أن أرى أناسا آخرين عدا كم أنتم الأربعة .

— ماذا تعنى بهذا ؟ هكذا سأله الصياد .

— فأجاب رجل الدين : أوَ تعرف كم من الزمن سيستمر اضطراب العناصر هذا ، وأنا رجل قد أثقلت كاهله السنون ، ومن اليسير جداً أن يحدث وينقطع مجرى حياتى وأبلى تحت التراب قبل فيضان هذا السيل . أما أنت ، فليس من المستحيل لديك أن يتجمع الماء كثيراً ، الماء المزبد ، فيما بينك وبين الغابة فى الناحية الأخرى من الشاطىء ، وأن تفصل هذه الأمواج

بينك و بين بقية الأرض إلى درجة أن زورق صيدك الصغير لايستطيع بعدُ أن يبلغ الشاطىء الآخر ، و ينسى سكان الأرض اليابسة ، وسط كل شواغلهم ، وملاهيهم ، شيخوختك ، فى أغلب الظن » .

فوثبت المرأة العجوز عند سماع هذه الكلمات فزعة ، ورسمت علامة الصليب ثم صاحت : « لاقدّر الله ! » فنظر اليها الصياد باسما وقال : « ما أعجب حال الانسان ! إن هذا لن يغير شيئا فى حياتنا ، على الأقل بالنسبة اليك ، يازوجتى . فمنذ كثير من السنين ، هل تخطيت يوماً هذه الناحية من الغابة ؟ وهل رأيت أحداً من الناس غير أندين وغيرى أنا ؟ فالفارس لم يأت هنا إلا منذ قليل ، والقسيس وصلنا منذ لحظات ، وسيظلون معنا ، إذا صرنا جزيرة منسية ، وهذا كله إذن فى صالحك .

فقالت العجوز : ومع ذلك ، لا أدرى لماذا هذا يحزننى : أن أتخيل أنى سأكون معزولة عن الناس إلى الأبد ، حتى ولو لم يعرفهم الانسان ، ولم يرهم أبداً ولن يراهم .

— ستبقَى إذن معنا ، ستبقَى إذن معنا ! هكذا همست أندين وكادت أن تغنى ، بصوت عذب كل العذوبة ، واحتكت أكثر وأكثر بهلدبرند . أما هذا فقد كان غارقا فى عالم من الرؤى الباطنة الغريبة . فالمنطقة القائمة عبر المياه والغابة قد اختفتا عن ناظريه ، منذ أن تفوه القسيس بكلماته الأخيرة ، اختفتا فى عالم قصيٍّ غامض غير جلى ، بينا الجزيرة ، الجزيرة

الخضراء الزهراء ، قد بسمت له بنْضرة وجمال لا يقوى على اغرائهما . ورفت خِطّيباه كزهرة كلها جمال والتهاب فى هذه البقعة الضيقة ، بل فى الكون بأسره . وهاهو ذا القسيس . ثم إن المرأة العجوز كانت ترمق الفتاة الجميلة بعين مغضبة ، لأنها ، وفى حضرة رجل الكنيسة ، كانت تتلاصق بشدة بحبيبها ، فكان ثمة شعور بأن فيضاً من الكلمات البغيضة سوف يسيل . هنا صاح الفارس بهذه الكلمات ، التى فاه بها ووجهه ناحية القسيس : « أنت ترى أمام ناظريك خِطْبين ، أيها الأب الجليل . فإذا لم يكن لدى هذه الفتاة ولا هذين العجوزين الطيبين اعتراض ، فبارك زواجنا هذا المساء » .

فأخذت الدهشة الشيخ والزوجة العجوز كل مأخذ . أجل أنهما كانا يريان فى داخل نفوسهما منذ زمان أن الأمور تسير فى هذا الاتجاه ، ولكنهما لم يصرحا به أبدا ، حتى إنه حين فاه الفارس بتلك الكلمات ، بدا لهما ذلك شيئا جديداً لم يسمع به . أما أندين فقد أخذها الجِدُّ فجأة وظلت ساهمة مطرقة الرأس ، بينا أخذ القسيس يلقى السؤال تلو السؤال كى يعلم حق العلم ما يحيط بالأمر من ظروف وملابسات ، ويتأكد من موافقة الشيخين . وبعد كثير من الأخذ والرد من هذا الجانب وذاك الآخر تم الاتفاق . ونهضت العجوز الطيبة كى تعد غرفة الزفاف للزوجين الشابين ، وتفتش عن شمعتين مباركتين احتفظت بهما منذ زمان طويل من أجل المواسم والحفلات .

والفارس من ناحيته قد أقبل على سلسلته الذهبية ينتزع منها حلقتين كى يتبادلهما مع خطيباه .

ولكن هذه ، حين لاحظت مايفعل ، خرجت سريعاً عن تفكيرها العميق وقالت : « كلا لاتفعل هذا ! فإن أبوىَّ لم يدعانى فى العالم هكذا عاطلة من كل شىء ، بل هما قد حسبا من قبل حساباً لمثل هذا المساء » . وما قالت هذه الكلمات حتى خرجت من الغرفة سريعاً وعادت فى الحال ومعها خاتمان ثمينان ، أعطت خطيبها أحدهما ، واحتفظت لنفسها بالآخر . فعجب الصياد الشيخ من هذا كل العجب ، وازدادت امرأته عجباً وقد دخلت حينذاك عليهم ، عجبا لأنهما لم يريا معها هذا الحلى . فشرحت لهما أندين ما كان فقالت : « ان والدىَّ قد أمرا بخياطة هذه التوافه فى ثوبى الجميل الذى كنت ارتديه فى نفس اليوم الذى أتيت اليكم فيه . وحرّما على كذلك أن أقول عنهما شيئا الى كائن من كان قبل ليلة زفافى . ولذا نزعتهما من قبل دون أن أفصح عن شىء ، وأخفيتهما حتى اليوم » . ثم قطع القسيس عليهم مجرى التساؤل والدهشة بأن أطفأ الشمعتين المباركتين ، ووضعهما على منضدة وجعل الخطيبين يجلسان فى مواجهته . وقام حينئذ بتقديس زواجهما بكلمات قصار احتفالية . وبارك الشيخان الشابين ، واستندت أندين مطرقة مرتعشة الى الفارس ، وفجأة قال القسيس : « ما أعذبكم أيها القوم ! كيف زعمتم لى إنكم الكائنات الانسانية الوحيدة التى تحيا هنا فى هذه الجزيرة ؟ مع

أنه ، طوال الطقوس ، كان ثمة رجل عملاق مهيب الطلعة ، متدثر بثوب أبيض ، استمر ينظر إلينا من هذه النافذة القائمة فى مواجهتى ؛ ولا بد أن يكون لا يزال وراء الباب ، أفلا ترغبون فى دعوته للدخول ؟ » فقالت الشيخة وهى ترتعد فزعاً : « اللهم احفظنا منه ! » . وأنغض الصياد العجوز رأسه دون كلام ، بينما وثب هلدبرند إلى النافذة ، فخيل إليه حينذاك أنه لا يزال يرى خطا أبيض ، سرعان ما اختفى نهائياً فى الظلام . فاقتنع القسيس بأنه لم يكن على صواب فيما زعم ، واطمأن بهم الجلوس أجمعين حول النار ، تنتظمهم الثقة وتحلق فوقهم أطياف الائتلاف .

الفصل السابع

ما حدث أيضا ليلة الزفاف

وقبل حفل الزفاف وإبانه ، كان موقف أندين يسوده الهدوء والتحفظ . أما الآن فكأن الخيالات العجيبة التى كانت تسكن نفسها قد أرادت كلها الخروج والانبثاق بكل جسارة وقحة ، فراحت تسبب لزوجها ولأبويها اللذين تبنياها ، بل وللقسيس الذى أظهرت نحوه من قبل أعمق احترام ، راحت تسبب لهؤلاء جميعاً آلاف المشاكسات ، وألوان المعاكسات الطفولية . وحينما أرادت الشيخة الطيبة الاحتجاج ، حملها الفارس على الصمت بكلمات قالها فى لهجة الجد ، وفيها نعت أندين باسم الزوجه ، وألح فى هذا بطريقة تنم عن مقصود . ومع هذا كان

الفارس نفسه قليل الرضا عن ألاعيب أندين هاتيك ، ولم تُجْدِ في هذا إشارات التثريب ولا التَّحَمات ولا كلمات التقريع . وفي كل مرة كانت الزوجة الشابة تلاحظ سخط الزوج الحبيب — وهو ما حدث أكثر من مرة — كانت تستعيد هدوءها من غير شك ، وتجلس إلى جواره ، ملاطفة إياه ، هامسة في أذنه شيئاً وهي تبسم ، وكانت بهذا انما تمسح التقطيبات التي ارتسمت على جبينه . ولكنها سرعان ما تتملكها فكرة هوجاء تدفع بها من جديد إلى دوامة من الفراهات[1] الشيطانية ، فتكون الحال أسوأ من ذي قبل . فانتهى الأمر بالقسيس أن قال لها بلهجة فيها من الجد بقدر ما فيها من اللطف والحنان : « أيتها الغادة الفاتنة ، لا يستطيع المرء أن يراك دون أن يعمر قلبَه السرورُ ، لكن اعملي على تكييف روحِك وَفقاً للنغمة المرغوبة كيما تكون دائماً في انسجام مع روح هذا الذي أصبح لك الآن زوجا — . فأجابت أندين باسمة : الروح ! كلمة ترن أجمل الرنين ، وقد تكون فيما قلت حكمة نافعة كل النفع لكثير من الناس . ولكني سائلتك : و بالنسبة إلى من ليست لهم روح ، أي شيء يجب إذن أن يظل في انسجام ؟ والأمر على هذا بالنسبة إلي » . فاعتصم القسيس بالصمت وقد تأثر أقسى التأثر من هذه الكلمات ، وكظم غيظاً تقيا ، مشيحاً بوجهه في حزن عن وجه المرأة الشابة . غير أنها اقتربت منه في رقة جذابة وقالت : « كلا ، بل استمع إليَّ في

(١) ألوان من النشاط والمرح والشول والملاعبات .

سكون وطمأنينة قبل أن تظهر بمظهر المغضب الحانق ، لأن مظهرك الساخط يؤلمنى ، وما لك أن تؤلم كائناً لم يشأ إيذاءك . ألا شيئاً من التسامح ، وأنا أُظْهِرك على ما قصدت اليه » .

وبدا كأنها تتأهب لكى تقص قصة طويلة مفصَّلة ، غير أنها توقفت فجأة ، وكأنها ترتعد رعدة باطنة ، وانطلقت تذرف دموع الأحزان بغزارة . ولكنهم جميعاً لم يعرفوا ماذا يفعلون معها ، بل نظروا اليها فى صمت ، غارقين فى شواغل ذات ألوان . وأخيراً قالت تُرقىء دمعها ،ناظرة إلى القسيس فى شىء من الجدّ : « الروح ، لا بد أن تكون هذه شيئاً عزيزاً ، ولكنه مخيف كل الخوف . ألا أنبئنى ، نشدتك الله ، أيها الرجل الصالح القديس ، أفليس من الخير دائماً ألا يكون للانسان روح ؟ » ثم صمتت من جديد ، وكأنها تنتظر جوابا ، كاتمة عبراتها . فقام كلٌّ من بالكوخ من مجالسهم وابتعدوا عنها فى رِعْدة وقشعريرة. أما هى فلم تكن تبدى اهتمامها إلا الى القسيس ؛ وكانت قسماتها تترجم عن حب استطلاع يشيع فيه شىء من الخوف ، ولهذا السبب عينه بدت للآخرين فى مظهر يدعو إلى أقسى الارتياع . واستمرت تقول حين لم تر أحداً يجيبها : « ما أثقل عبء الروح ! ما أثقله ! لأن قربها يحيطنى بهالة من الجزع والهموم . واأسفاه ! لقد كنت حتى الآن مرحة قليلة الاكتراث ! » . وعادت من جديد تستمطر شآبيب الدموع ، وتسترسل فى عبرات كأنها السيل الأتىّ ، وأخفت وجهها فى ثنيات ردائها . وهنا أقبل عليها

القسيس فى جد مهيب وتحدث اليها ، مهيباً بها ، بحق كل الأسماء الحسنى ، أن تنفض عنها كل قناع إذا كانت تخفى فى داخلها شيئاً من الروح الخبيثة . ولـكنها ركعت أمامه ، مكررة كل الـكلمات التقية التى فاه بها ، حامدة لله شاكرة ، مؤكدة أنها لا تريد لـكل الناس غير الخير . فانتهى الأمر بالقسيس أن قال للفارس : « أيها السيد الشاب ، إنى لأدعك وحدك مع تلك التى ربطتُ بينك و بينها بروابط الزواج المقدسة . وعلى قدر ما أتبين ، لست أرى فيها شيئاً من الشر ، بل كثيراً من الغرابة . لذا أنصحك بالفطنة والحب والاخلاص » . ثم خرج من الغرفة ، وتبعه الصياد وامرأته وهما يرسُمان علامة الصليب .

أما أندين فقد جثت على ركبتيها ، ونزعت عن وجهها ، وقالت وقد صوبت نظرة خجولاً ناحيةَ هلدبرند : « واأسفاه ! لا شك فى أنك لا تريد بعد أن تحتفظ بى ؛ ومع هذا ، فانى لم آت شراً ، أنا الطفلة البائسة ، البائسة حقا ! » وكان تعبيرها وهى تفوه بهذه الـكلمات جميلا مؤثراً إلى الحد الأقصى ، حتى إن زوجها ، وقد نسى كل ما كان بها من غرابة ومثار للقلق ، وثب اليها وضمها بين ذراعيه كيما ينهض بها من على الأرض . فلاحت منها حينئذ بَسْمَةٌ من خلال العبرات : وكان ذلك كتحية الفجر لأمواج الينبوع . « ليس فى وسعك الانفصالُ عنى ! » بهذا همست فى لهجة الواثق المستيقن ، ملاطفة بيديها الصغيرتين خدود الفارس . فانسى هذا الأفـكار المريعة التى كانت لا تزال تترصد

فى أعماق نفسه ، والتى كانت تزيد فى إقناعه بأنه قد بَنَى بجنّية أو بعِفريت خبيث من عالم الأرواح . ولكن سؤالا واحداً انحدر من شفتيه على غير وعى منه ولا إرادة : «عزيزتى أندين الصغيرة ! كلمة واحدة فقط . ماذا قصدت ، حين تحدثت عن أرواح الأرض وكيلبورن ، فى اللحظة التى كان فيها القسيس يقرع على الباب ؟ »
فأجابت أندين ضاحكة وقد استعادت كل مرحها المعتاد : « قصص ! قصص أطفال !؟ كنت أنا أول من أخافك بهذا ، ولكنك أنت الذى رُعتنى من بعد . وهكذا تنتهى الأغنية ، وهكذا تنتهى ليلة الزفاف » . « كلا ، ليس هكذا » ، قال ذلك الفارس وقد أسكرته نشوة الحب . ثم أطفأ الشموع ، وحمل حبيبته الجميلة إلى غرفة العُرْس وهو يغمرها بفيض من القبلات ، والقمر يضىء وجهها برقة وعذوبة ، وأشعته تنفذ من خلال النافذة، كى تضمها بين أحضانها .

الفصل الثامن

غـــــداة الزفاف

رف نور الصباح الغضّ ، فنبه العريس الشاب والعروس الفتاة . فأخفت أندين نفسها على استحياء تحت الغطاء ، بينا ظل هلدبرند مستلقياً ، يتأمل فى صمت ، وعيناه حائرتان . فقد كان فى كل مرة يغفو فيها طوال الليل يضطرب أشد الاضطراب بسبب ما كان يبدوله من أحلام غريبة مريعة : كانت رؤى

أشباح ساخرة تحاول أن تُزَيِّي نفسها بزى النساء الجميلات ، لا تلبث أن تتخذ رؤوس التنانين . وحين كانت هذه الرؤى المريعة توقظه واثباً ، ، كان يرى فى الخارج آتياً من النافذة ضوء القمر الشاحب المُتَبَرِّد ، فيرتعد خوفاً ، ويتجه بنظره نحو أندين التى كان ينام على صدرها ، وهى راقدة إلى جواره فى جمال ورشاقة لا يعروهما أدنى تغيير . وهنالك كان يطبع قبلة رقيقة على شفتيها القرمزيتين ،ويغفو من جديد ، كى يستيقظ مرة أخرى فريسةً لمخاوف جديدة . فلما فكر فى هذا وأداره فى نفسه الآن . وهو تام اليقظة ، أَنَّبَ نفسَه على الشكوك التى جعلته ينظر إلى زوجته نظرة اتهام ، وطلب إليها هى أيضاً أن تغتفر له ما كان منه . فما فعلت إلا أن مدت اليه يدها الجميلة ، وتنهدت من أعماق الفؤاد . ولكن نظرة من عينيها ، نظرة فيها رقة وحنان لا حدَّ لها وما شعر بمثلهما من قبل ، أكد له بكل يقين أن أندين لا تحمل له فى نفسها أدنى موجدة . فنهض حينئذ مسروراً ، ولحق ببقية ساكنى البيت فى الغرفة المشتركة ؛ وقد كان الثلاثة جالسين حول الموقد ، وعلى وجوههم سمة الانشغال والهم ؛ ولم يكن لدى أحد منهم شجاعة للكلام . وبدا القسيس هو الآخر يصلى فى صمت داعياً الله أن يقيهم من الشر أجمعين . فلما رأوا العريس الشاب يقبل عليهم راضياً ، أشرقت باقى الوجوه ، حتى إن الصياد العجوز بدأ يداعب الفارس ، فى شىء كثير من اللياقة والشرف ونبالة النفس ، إلى درجة أن العجوز الطيبة قد شاركته

هي الأخرى بابتسامة رقيقة . وفي تلك الأثناء كانت أندين قد انتهت من زينتهـا و بدت على وصيد الباب . فأرادوا أن يستقبلوها أجمعين ؛ ولـكنهم ظلوا سـاكنين ، قد أخذتهم الدهشة ، لأن الزوجة الفتاة قد تبدّت لهم غريبة ، وإن كانت معروفة تمام المعرفة . وكان القسيس أول من تقدم إليها ، وفي نظراته يرف حبٌّ أبوي ؛ ولما رفع يده ليباركها ، جثت الزوجة الشابة الفاتنة على ركبتيها قُبالته ، وهي ترتجف رجفة تقية ورعة؛ وسألته الغفران في كلمات متواضعة رقيقة ، الغفران عما فاهت به من كلمات طائشة عشية أمس ؛ كما سألته أيضاً ، بلهجة مؤثرة للغاية ، أن يصلي لنجاة زوجها . ثم نهضت من بعد ، وعانقت من اتخذتهما أبوين ، وقالت وهي تشـكر لهما ما أبديا نحوها من إحسان : « أوه ! إني لأشعر الآن في أعمق أعماق قلبي بمقدار ما بذلتم من أجلي مما لا حد له ، أنتم يا أعزائي ! » . ولم تستطع أن تتوقف في إظهارها لحبها ، ولـكنها لم تكد ترى ربة البيت تنظر من ناحية طعام الإفطار ، حتى أسرعت إلى الموقد تشرف على الطهي وتُعد كل شيء ، رافضة أن تتحمل الأم العجوز الطيبة أي عناء في هذا السبيل .

وظلت سحابةَ النهار هادئة لطيفة المعاشرة مؤدبة ، ربة بيت حسنة ، وفي الآن نفسه زوجة شابة يزينها الحسن ويزيد في إغرائها الحياء . وكان الذين عرفوها من زمان طويل ينتظرون في كل لحظة انقلاباً غريباً في زوجها الهوائية ، ولـكن انتظارهم

كان يذهب سدى . فإن أندين لم تَبْدُ إلا عن عذوبة ورقة ملائكيتين . ولم يستطع القسيس أن يصرف نظراته عنها ، وقال مراراً للزوج الشاب: « أيها السيد ، إنه كَنْزٌ ذلك الذى وهبتك العناية الالهية بالأمس بواسطة ما قمتُ به من مهنة تافهة ، فامنحها عنايتك ، كما يجب ، فإنها ستعينك على الخلاص ، وتضفى عليك النعيم فى هذا العالم الدنيوى » .

وقبيل المساء تعلقت أندين فى لطف متواضع بذراع الفارس ، وقادته بخفة إلى واجهة الكوخ ، حيث كانت الشمس الغاربة ترسل ضياء فاتناً على العشب النضير وحول السيقان المتوثبة للشجر العظيم . وكانت عينا الزوجة الشابة غارقتين فيما يشبه أنداء الغرام والأحزان ؛ وحول شفتيها يحلق شىء يحاكى السر اللطيف الخجول لم يترجم عن نفسه إلا بتأوهات متصلة . ودون أن تفوه بكلمة ، قادت حبيبها بعيداً بعيدا ؛ ولم تجب على أسئلته إلا بنظرات لم يستطع أن يقرأ فيها أى تفسير رغب اليه ، ولكن كانت تفتح فيها سماء الحب و بذلِ الذات فى خفر واستحياء .

وعلى هذا النحو وصلت شاطىء السيل ، وهنا دهش الفارس وهو يرى السيل يجرى هادئاً لا يُبدى شيئاً من شراسته واندفاعه وفيضانه كما كان فى الأيام السالفة . « منذ الآن حتى الغد ، سينضب هذا السيل تماماً ، هكذا قالت الجميلة بصوت تبلله الدموع — وفى وسعك أن ترحلَ من حيث شئت ، دون أن يعوقك السيل فى شىء . — ولكن لا رحيل بدونك ، هكذا

أجاب الفارس ضاحكا ، مَثّلى لنفسك اذن : أنه حتى لو رغبت أنا فى الرحيل ، فإن الكنيســة والكهنوت ، والامبراطور والامبراطورية لابد وأن تجرد حملة من أجل أن ترد اليك هذا الهارب — فهمست الفتاة قائلة : هذا كله يتوقف عليك ، عليك أنت ، أنت وحدك ؛ وكانت تترجح بين البكاء والابتسام ؛ ولكنى معتقدة كذلك أنك ستحتفظ بى ، فان قلبى شغوف بك كل الشغف . احملنى فحسب إلى تلك الجزيرة الصغيرة الماثلة أمامنا هناك ، فهناك سيتقرر كل شىء . وفى وسعى أن أنساب بسهولة فى هذه الأمواج الصغيرة ، ولكنى أشعر بكثير من الراحة بين ذراعيك ، فاذا ألقيت بى ، فانى أكون على الأقل قد استرحت بينهما للمرة الأخيرة » . ولكن هلدبرند ، وقد ضاق قلبه وتأثر أغرب التأثر ، لم يستطع أن يُحير جواباً . بل أخذها بين ذراعيه وحملها وسط السيل ، متذكرا حينئذ ، وحينئذ فحسب ، أن هذه الجزيرة هى بعينها الجزيرة الصغيرة التى أتى بها منها إلى الصياد مساء ذلك اليوم الذى رآها فيه لأول مرة . فلما وصل إلى الناحية الأخرى ، أرقدها على العشب الناعم وأراد أن يجلس ، ملاطفاً ، إلى جوار حِمْله الجميل ، ولكنها قالت له : « كلا ، بل اجلس فى مواجهتى ، فانى أريد أن أقرأ فى عينيك قبل أن تتحدث شفتاك ! أصغِ جيدا إلى ما سأقص نبأه عليك » . ثم أنشأت تقول :

« ألا فلتعلم ، ياعزيزى الرقيق ، أن فى العناصر كائناتٍ لها من المظهر مثل مالك تقريباً ، ولكنها لا تكشف عن نفسها إلا

نادراً ؛ ففي النيران تلمع السَّمَنْدرات العجيبة وتلعب ؛ وفي الأعماق الأرضية يسكن الجن الموَكل بالكنوز الأرضية ، وهو خبيث عفريت ؛ وخلال الغابات تجوب أسراب الأحراشيات التي تنتسب إلى مملكة الهواء ؛ وفي البحيرات والينابيع والأنهار يحيا جنس الأرواح المائية المنتشرة أوسع انتشار [1] . ومن الخير

---

(١) السمندر ، ومن أسمائه أيضا سمندل ، وسميدر ، وسندل وسمند ، حيوان من فصيلة الضفدعيات . برمائي فقري نحيل البدن ، صغير السيقان ، طويل الذيل . ويشبه العظاءة من حيث الشكل الخارجي ، ولكنه يفترق عنها في كون جلده مبتلاً وفي خلوه من التجعيدات . وقد زعم القدماء أن هذا الحيوان لا يحترق بالنار ، فقال أرسطو :

« إن السمندر يدلنا على أن بعض الحيوان يمكن أن يحيا في النار . إذ يقال إن النار تنطفىء إذا مشى عليها السمندر » (كتاب الأوصاف م٥ ف١٧ فقرة ١٣) ؛ وردد هذا القول مؤلفو كتب الحيوان من العرب مثل الجاحظ والدميري (تحت مادة سمندر) . وانتشر ذلك في العصور الوسطى الأوربية حتى زعم أصحاب الصنعة أنه رمز عنصر النار . ولعل السبب في ذلك أنه دائماً مبتل الجلد ، فإذا لامس ناراً أطفأها .

أما الجنّ الموكل بالكنوز الأرضية فيعرف في اللغات الأوربية باسم « جنوم » ، وهي كلمة ترجع إلى الكلمة اليونانية « جينوموس » المركبة من جيه γή أي الأرض ونوموس Noμος أي مسكن .

والأحراشيات هي المسماة « رِسلْفا » وعند برتسلسوس هي روح الهواء ، وهي أحيانا تختفي غير منظورة في الهواء ، وأحياناً أخرى تضيء كالشهب . وهي مأخوذة من كلمة لاتينية بمعنى الغابة أو الحرش .

والمؤلف هنا يعتمد على برتسلسوس مباشرة ، إذ يقول هذا في المقالة الثانية من كتاب الحوريات « : إن الأرواح التي تسكن الماء تسمى الحوريات ، وتلك التي تسكن الهواء رِسلْفاوات ، والتي تقطن الأرض تدعى أقزاماً ، والتي تعيش في النار تسمى سمندرات » ؛ كما يقول : « وأرواح الماء تسمى =

للمرء أن يسكن تحت قباب البلّور الرنانة التى تنفذ خلالها السماء بشمسها ونجومها زائرات ؛ وإن فى الحدائق لترف أشجار فارعة من المرْجان ذوات ثمار زرقاء وحمراء ؛ ويحلو للمرء أن يتريض على رمال البحر الرقيقة وعلى الأصوات الجميلة المختلفة الألوان ، وإن ما احتواه العالم القديم من أشياء جميلة جمالاً ليس العالم اليوم جديراً بالتمتع بها بعد ، هذا كله يشمله الموج بأغشية مستسرّة من الفضة ، تحتها تلمع الآن هذه الآثار والتماثيـــل ، عالية جليلة ، تغمرها المياه العاشقة برفق وحنان ، وتخرج منها بواسطة الإغراء أزهاراً مائية جميلة ، وتيجاناً من اليراع . والقاطنون هناك قوم ذوو حسن بارع وطلعة وضيئة ؛ والغالبية منهم تفوق الآدمين جمالاً وفتنة . وكثير من الصيادين قد شاء لهم الطالع السعيد أن يفجأوا ابنة من بنات البحر وهى تصعد من تحت الموج وتغنى ؛ فأذاعوا بأقاصيصهم حديث جمالهن ؛ وهؤلاء النسوة العجيبات ، هن ما يطلق عليهن الناس من البشر اسم أندينات . وأنت يا صديقى العزيز الآن بإزاء أوندينة حقيقية » .

وود الفارس لو استطاع أن يقنع نفسه بأن امرأته الفاتنة قد أصابتها نوبة من نوباتها الجنونية الشاذة ، وأنها قد حلا لها أن تعبث به بتصوير أقاصيص خيالية ؛ ولـكن عبثاً ، عبثاً حاول أن يردد لنفسه هذا التفسير الذى علل به نفسه ، فإنه لم يستطع

= أيضا أوندينا ، وأرواح الهواء سلفسترا، وأرواح الجبال تسمى جنوم ، وأرواح النار تسمى ڤولكانا أحرى من أن تسمى سمندرات » .

مطلقاً أن يؤمن به ، وأصابته قشعريرة غريبة جعلت كيانه كله يهتز مرتعداً من الأعماق . فلم يفه بكلمة ، بل ظل يجتلى القاصة الجميلة بعيون حداد . فأنغضت هذه رأسها حزينة آسفة ، وزفرت زفرة حارة صادرة من أعماق الفؤاد؛ ثم تابعت حديثها على ذا النحو:

« لقد كان حظنا سيكون أسعد من حظكم معشر البشر، ونحن نسمى أنفسنا أيضاً بشراً — ونحن كذلك بما لنا من تركيب وهيئة جسم — ولكن ثمة ألماً شديداً وشراً مستطيراً نعانيه . فنحن وأشباهنا من أبناء العناصر الأخرى ، نستحيل إلى تراب ودخان روحاً وجسما ، إلى درجة أنه لا يبقى منا بعدُ أدنى أثر ، بينا أنتم معشر البشر تهبون يوماً لحياة أطهر ، ونبقى نحن حيث يبقى الرمل والشرارة ، والريح والموج . ولهذا فليست لنا روح وعنصر يحركنا ، وغالباً ما يذعن لنا ويطيع ، طالما كنا على قيد الحياة ، حتى إذا مِتْنا ، أحالنا إلى تراب ، ونحن دائما فى فرح وسرور ، لا نستسلم مطلقاً للحزن والأشجان ، مثلنا مثل البلابل والأسماك الذهبية وأبناء الطبيعة الوُسَماء الآخرين . ولكن كل شيء يصبو الى العلاء على نفسه [1] . وعلى هذا النحو رام أبى ، وهو أمير قوى من أمراء مياه البحر الأبيض المتوسط ، أن تكون لابنته الوحيدة روح ونفس ، حتى ولو جرها هذا إلى معاناة الآلام العديدة التى تعانيها الكائنات ذوات النفوس . غير أن بنات جنسنا لن يستطعن أن يحصلن على نفس إلا بالاتحاد التام ، بواسطة

(١) فى هذه العبارة فلسفة القصة كلها.

الحب ، بواحد منكم . والآن قد صارت بى نفس ، أدين بها لك أيها الحبيب الذى أعشقه عشقاً أنا عاجزة عن التعبير عنه ، وسأظل أسيرة إحسانك ، إذا لم تجعلنى شقية طوال حياتى . و إلا فماذا سيكون مصيرى ، إذا ارتعت منى ونبذتنى ؟ ولكنى لم أشأ الاحتفاظ بك بخداعى اياك . فاذا شئت أن تنبذنى ، فعليك بهذا فى الحال ، وعد وحدك الى الشاطىء الأخر ، فسأغوص فى هذا الجدول ، الذى هو عمى ، ويحيا هنا حياته الغريبة وحيداً فريداً ، نائياً عن الأحباب . ولكنه قوى ، يتمتع بتقدير كثير من الأنهار الكبيرة وحبهم ، وكما أتى بى هنا إلى الصيادين الشيخين طفلة ضحوكا ، سيعود بى إلى أهلى امرأة ذات نفس ، إمرأة تعرف الحب وتعرف الألم» .

وودّت أن تستمر فى هذا الحديث ؛ ولكن هلدبرند حملها بين ذراعيه ، وملء قلبه أعذب الشعور وأرق الحب ، وعبر بها إلى الشاطىء الآخر . وهنا فقط أقسم ، مازجاً كلماته بالقبل والدموع ، أقسم ألا يهجر مطلقاً إمرأته البديعة ؛ وتباهى بأنه أسعد من المثال اليونانى بجماليون ، الذى قيل إن السيدة ڤينوس قد أشاعت الحياة فى تمثاله المرمرى الجميل كيما تصنع منه حبيبة له . وعادت أندين إلى الكوخ وهى عالقة بذراعيه ، وملؤها الثقة العذبة ، وشعرت شعورا لم تحى مثله من قبل ، شعرت بأنه ليس لها أن تأسف كثيرا على أنها غادرت القصر البلورى ، قصرَ أبيها العجيب .

الفصل التاسع

كيف أخذ الفارس أندين معه

حينما استيقظ هُلْدبرند صبيحة الغد ، لم تكن زوجته الفاتنة إلى جواره . فاندفع من جديد سادرا فى أفكار شاذة غريبة قادته إلى أن لا يرى فى زواجه ، وفى أندين الساحرة نفسها ، غير وهم عابر وخيال زائر .

ولكن ، هاهى ذى قد فتحت الباب ودخلت ، ثم عانقته وجلست إلى جانبه على السرير ، وقالت : « خرجت فى البكور كى أرى ما إذا كان عمى قد أوفى بعهده . وها هو فعلا قد جعل الأمواج تنحسر إلى مجراه الهادىء ؛ وها هو ذا يجرى كما كان من قبل ، وحيدا مفكرا ، خلال الغابة . وإخوانه فى مملكتى الماء والهواء قد هدأوا هم الآخرون ؛ وكل شىء سيستأنف مجراه الطبيعى الهادىء فى هذا المكان ، وفى وسعك بعد أن تعود الى أهلك سيرا على الأقدام ، حالما شئتَ » .

بدا هذا لهلدبرند وكأنه يواصل به الحلم يقظاناً ، لأنه لم يستطع أن يتصور صلة الرحم هذه التى لزوجه . ومع هذا ، لم يفصح عن شىء مما فى نفسه ، وسرعان ما أفرخ روعُه وأنام كلَّ شك وهمّ بفضل جمال زوجته البديعة الخلاب . حتى إذا ما أصبح معها بعد قليل أمام الكوخ يتأمل اللوحة التى رسمها شبهُ الجزيرة النضيرُ والمياه الصافية التى تعانقه ، استراح وادعاً الى مهدحبه هذا وقال:

« لمـــاذا نرحل اليوم اذن ؟ إنَّا لن نعرف حقاً فى بقعة من الأرض غير هذه أياماً أسعد ممـا عسى أن نقضيه هنا فى هذا المكان الصغير المنعزل الثاوى مختفياً فى حمى أمين . فلنبق هنا إذن لمدة نرى فيهـــا الشمس وهى غاربة مرتين أو ثلاثاً على الأقل . — كما يأمر سيدى ، هكذا أجابت أندين بلطف وتواضع . ولـكن هاك شيئاً : فإن هذين الشيخين سيحزنان على كل حال إذا فارقتهما. فإذا أحسوا فىَّ الآن، إلى جانب هذا ، نفساً مطيعة مخلصة ، وشعوراً بإجلالى لهم منذ الآن وحبهم ، فسيجعل رحيلى عيونهم تذرف من العبرات قدراً تنطفأ معهم عيونهم البائسة الـكليلة . إنهم لا يرون بعد فى مزاجى الهادىء الورع إلا ما دل عليه حتى الآن : هدوء البحيرة حين يكون الهواء ساجياً ، وهم سيصادقون شجيرة أو زهرة صغيرة بالسهولة عينها التى صادقونى بها . وهذا القلب الذى منحته منذ قليل ، هذا القلب العامر بالحب ، لا تدعنى أكشف لهم عنه فى اللحظة عينها التى يجب عليهم فيها أن يفقدوه طوال محياهم فى هذى الدنيا ؛ وكيف أستطيع أن أخفيه عنهم إذا بقيت وإياهم طويلا » .

فوجدها هلدبرند على حق فيما قالت ؛ وراح يتحدث إلى الشيخين ويتفاوض وإياهم على السفر ، قائلا لهم إنهما سيرحلان تواً . وتقدم القسيس كرفيق للشابين المتزوجين . وبعد قليل من التوديعات ، أركب القسيس والفارس الزوجة الفاتنة على الجواد ، وسارا إلى جوارها ، وهرعوا جميعاً كى يلحقوا بالغابة عن طريق

مجرى السيل الذى جف . أما أندين فقد كانت تذرف عبرات صامتة وإن كانت مُرّة ؛ وزفرات الشيخين تشيعها . فإن شعوراً غامضاً قد بدا وكأنه يكشف لهما عما فقداه ، بفقدهما الآن فتاتهما الجميلة المتبناة .

ووصل الثالوث المسافر فى صمت مستمر إلى الظلال الظليلة فى الغاية . لقد كان منظراً جميلا حقاً ، تحت هذه القبة من الخضرة ، أن تكون هذه المرأة الفتية الجميلة على جواد أصيل أنيق الزينة ، يمشى إلى جانبه من هذه الناحية القسيس المحترم ، مرتدياً ثوباً أبيض هو شعار طريقته ، ومن تلك الأخرى الفارس وهو فى زهرة العمر وميعة الشباب متدثرا بثياب ذات ألوان صافية زاهية ، وقد تمنطق بسيفه الفاخر . ولم يكن لهلدبرند من نظر إلا ناحية زوجته البديعة ؛ وأندين ، وقد أرقأت الدموع التى شاء لها لطفها وحنانها أن تذرفها ، لم تكن ترمق بعينيها غير زوجها الحبيب ، وسرعان ما اشتبكا سوياً فى حديث صامت أداته النظرات واللمحات ، حديث لم ينتزعا منه إلا بعد لأى بواسطة مناقشة كان القسيس يديرها بصوت خفيض مع رفيق للطريق رابع انضم إليهم فى تلك الأثناء دون أن يشعر بذلك الزوج والزوجة .

كان الرفيق الجديد يلبس رداء أبيض شبيها برداء القسيس ، مع هذا الفارق وهو أن طرطوره كان نازلا كثيراً على وجهه ، وأن أكناف ثوبه كانت ترفرف حواليه فى ثنيات واسعة سعة

اضطر معها دائماً أن يحمل الرفارف حيناً على هذا الذراع ، وحينا على ذاك الآخر ، دون أن يكون فى ذلك مايضايقه فى سيره أدنى مضايقة . فلما أحس الزوجان الشابان بوجوده ، كان بسبيل أن يقول : « وهكذا ، أنا أسكن هذه الغابة منذ سنوات ، أيها الأب المحترم ، دون أن يكون فى الوسع نعتى باسم الراهب ، بالمعنى الذى تعطيــه لهذا اللفظ . لأنى كما قلت لك لا أعرف مطلقاً ما يسمونه التوبة ، كما لا أعتقد كذلك أنى فى حاجة اليها . وإذا كنت أحب الغابة كل هذا الحب ، فذلك لأنه يؤثر فى نفسى تأثيراً فريداً جميلا يبعث فى قلبى السرور أن أجوس خلال ظلال الأوراق الظليلة وأنا متدثر بردائى الأبيض الفضفاض ، وأن يهبط علىّ أحياناً وفجأة ضوء شعاعٍ من أشعة الشمس رقيقٌ . — فأجاب القسيس : إنك لرجل غريب الأطوار حقاً ، وبودى لو زدتنى بك علماً . — وبالمثل ، من أنت إذن ، هكذا سأله الغريب . — فقال القسيس : إننى أدعى الأب هَيلْمَن ، فأنا قادم من الشاطىء الآخر للبحيرة ، من دير سـلام الملاك . — فأجاب الغريب : حسنا ، حسنا . أما اسمى أنا فهو كيلبورن ، وإذا أردت أن تحمِّل نفسك عناء التوقير ، ففى وسعك أن تلقبنى بلقب السيد كيلبورن ، أو البارون كيلبورن ، لأنى حر حرية طير الغاب ، بل أنا أكثر منه حرية . وعلى ذكر هذا ، لدىّ ما أقوله لتلك المرأة الفتيــة هناك » . وبدون أن يمر من الزمن ما يسمح للمرء أن يرى كيف تم هذا ، كان إلى الجانب الآخر

من القسيس، قريباً كل القرب من أندين ، ومد قامته السامقة كى يهمس فى أذنها بكلمات . ولكنها أشاحت بوجهها عنه مذعورة ، وقالت : « ليس لى معك شأن بعد » . — فتهانف الغريب صائحاً : « هو ! هو ! أى زواج ممتاز ذلك الذى قمتِ به إلى درجة أنك لم تعودى تتعرّفين أهلك ؟ أولا تريدين أن تعرفى شيئاً عن العم كيلبورن ، الذى أتى بك إلى هذا المكان ، حباً لك خالصاً ؟ » . فأجابت أندين : « أطلب اليك ألا تظهر مرة أخرى فى حاشيتى. إننى الآن مرتاعة منك ، فهل تريد لزوجى أن يخشانى ويُذعر منى ، وهو يرانى فى رُفقةٍ وقرابةٍ غريبتين؟» — فقال كيلبورن: « يا ابنة أخى العزيزة ، لا تنسى أنى هنا من أجل الخفَر عليك ؛ وإلا لأمكن أن تأتى أرواح الأرض التى تسكن هذا المكان فتعبث بك عبثاً أحمق . دعينى اذن أرافقك بهدوء . ثم إن هذا القسيس العجوز عرف كيف يتذكرنى خيرا منك ، لأنه قال منذ لحظة وأكد أنه يعرفنى تمام المعرفة ، وأنى لابد قد كنت معه فى الزورق الذى سقط منه فى الماء . ويقيناً كنت هناك ، لأنى كنت زوبعة الماء التى انتشلته منه ، ثم حملته إلى الشاطىء كى يحتفل بزواجك » .

فنظرت أندين والفارس إلى ناحية الأب هَيلمن . لكن بدا هذا وكأنه يسير فى حلم جوّال، ولم يعد يسمع بعد شيئاً من الأحاديث التى كانت تدار من حوله . حينئذ قالت أندين لكيلبورن : « إنى لأرى هناك حد الغابة ، فلسنا فى حاجة بعد إلى معونتك ،

ولا شيء يثير مخاوفنا كما تثيرها أنت . ولذا أسألك ، بكل ود ، أن تختفي وتدعنا نواصل طريقنا في سلام » . فأثار هذا حفيظة كيلبورن ، فتهزّع[1] لأندين بشراسة ، وتهانف إلى درجة أنها صرخت وسألت حبيبها النجدة . وفي سرعة البرق ، كان هذا في الناحية الأخرى من الجواد ، ولوّح بسيفه البتار على رأس كيلبورن يريد أن يشجها ، ولكن ضربته أهوت على شلال اساقط وهي يغلي بالزبد من أعلى صخرة قريبة منهما كل القرب ، وبللتهما بالمياه فجاءة في ضوضاء بلبلة رنت كأنها رنة ضحك ، فابتلا حتى الإهاب. وهنا قال القسيس وكأنه استيقظ فجأة : « لقد توقعت هذا منذ وقت طويل ، لأن هذا الجدول كان يجرى أعلانا من مسافة صقب[2] . وقد بدا لى أول الأمر انساناً قادراً على الكلام » . وفي أذن هلدبرند كان النهر الدافق يهمس بوضوح هذه الكلمات : « أيها الفارس الجموح ، أيها الفارس الباسل ، لست مغضباً ، ولا أنا بالمنتهر ، لكن ذد دائماً على هذا النحو الطيب عن امرأتك الفتية الفتانة ، أيها الفارس الجموح ، أيها الفارس الباسل ! » .

وبعد قليل من الخطى كانوا خارج الغابة . وتبدّت أمامهم المدينة العتيقة براقة مشرقة ، ولذّ للشمس الغاربة التي وردّت بروجها أن تجفف ملابس المسافرين المبتلين.

---

(١) تهزع لفلان : تنكر وتعبس .

(٢) أي قريبة .

الفصل العاشر

كيف عاشا فى المدينة

كان اختفاء الفارس الشاب هلدبرند فون رِ نْجشتَن حادثاً اهتزت له أرجاء المدينة العتيقة ، حادثاً أثر فى نفوس جميع الذين أسر قلوبهم بمهارته فى مباريات الخيل والسلاح وفى الرقص ، ثم بما كان عليه من رقة الحاشية وسراوة الأخلاق . فحاشيته لم تشأ مغادرة المدينة دون سيدهم ، ولكن لم يجرؤ واحد منهم على التوغل فى الغابة الرهيبة سعياً وراءه ، فظلوا فى نُزُلهم قانعين بالأمل دون العمل ، كما هى عادة الناس غالباً ، مُحْيِين بشكاتهم ذ كرى المختفى . وحينما شعر أهل المدينـــة ، هم أيضاً ، بآثار العواصف العاتية والفيضانات ، تقهقر الشك فى فقدان الغريب الجميل (أى هلدبرند) ، وأظهرت بِرْتلده حزنها علناً . فقد أسفت على أنها استغلت إغراءها فى حمل الفارس على القيام بهذه المغامرة فى الغابة . وكان الدوق والدوقة ، وهما أبواها المتبنيان لها ، قد جاءا للبحث عنها وأخذها ؛ غير أن الفتاة عرفت كيف تحملهم على البقاء معها حتى تظفر بأخبار مؤكَّدة عن مصير هلدبرند ، إما حياة وإما موتاً . وسعت لكى تحمل فرساناً شباناً عديدين ، كانوا يتملقونها بإلحاح ، على اقتحام أخطار الغابة ، كى يبحثوا هناك عن السيد الجسور ، غير أنها لم تشأ أن تقدم يدها مكافأة عن هذه المغامرة ، ولعل ذلك لأنها لم تكن قد فقدت بعد كل

أمل فى أن تصير زوجاً لهذا الذى يمكن بعد أن يؤوب؛ فلم يرغب أحد فى المجازفة بحياته بالسعى لاعادة مثل هذا المنافس الخطير جزاء قفاز أو شريط ، بل ولا جزاء قُبلة .

فلما ظهر هلدبرند من جديد فجأة و بطريقة لم تكن فى الحسبان ، اغتبط رجال حاشيته وأهل المدينة ، بل والناس كافة ، اللهم إلا إذا استثنينا برِتْلْده . وهو استثناء طبيعى : فإنه إذا كان قد سر الآخرين كل السرور أن يأتى معه بامرأة رائعة الجمال، و إن كان الأب هَيْلمَن شاهداً وضامناً لشرعية زواجهما ، فإن برتلده لم يكن فى وسعها إلا أن تحزن ، أولاً لأنها قد أصبحت تحب الفارس الشاب حباً خالصاً من أعماق نفسها ؛ وثانياً لأن الحزن الذى كشفت عنه ، حزنها على اختفائه ، قد جعل الأمر ذائعاً أكثر مما كان يليق الآن ، ولكنها مع ذلك سلكت سبيل المرأة العاقلة ، ففعلت ما أملته الظروف . وعاشت مع أندين على خير وفاق . وهذه كان ينظر إليها أهلُ المدينة على أنها أميرة أنقذها هلدبرند من بعض السحر الخبيث فى الغابة . وحين كانا يُسألان هما أنفسهما فى هذا الصدد ، هى أو زوجها ، كانا يعرفان كيف لا يجيبان أو كانا يتجنبان السؤال بلباقة . أما عن الأب هَيلْمَن فقد كانت شفتاه مرْتجتين دون كل ثرثرة زائفة ؛ ثم إنه ، من ناحية أخرى ، لم يكد يصل المدينة حتى غادرها إلى ديره . فلم يكن لدى الناس غير الفروض الغريبة يضربون بعضها ببعض ؛ و برتلده نفسها لم تكن تعرف أكثر مما عرفه الآخرون .

على أن أندين كانت تزداد كل يوم شعوراً بالصداقة نحو هذه الفتاة البديعة اللطيفة . فكانت كثيراً ما تقول لها : «كان يجب أن تعرف كلتاهما الأخرى من قبل . أو : يجب أن يكون ثمة رباط غريب فيما بيننا ، لأن الانسان ، افهمى هذا جيداً ، أقول لأن الانسان لا يشعر بصداقة نحو آخر كتلك التى بيننا ، من أول مقابلة ، إلا إذا كان ثمة سبب عميق سرّى» . وبرتلده ، من جانبها ، كانت تشعر بأنها مقسورة على الاعتراف بأنها مجذوبة إلى أندين بنوع من الحاجة إلى الألفة والود ، على الرغم من أنها كانت مقتنعة بأن لها الحق فى أن تشكو مُرّ الشكوى من هذه المنافسة السعيدة . وتحت تأثير هذا الميل المتبادَل استطاعت الواحدة أن تقنع أبويها المتبنيين لها ، والأخرى زوجها ، بأن يؤجلا الرحيل يوماً من بعد يوم ؛ بل فكرا كذلك فيما بينهما فى أن ترافق برتلده أندين ، كى تقضى وإياها زمانا فى قصر رِنجشتتن قرب منابع الدانوب .

وعن هذا المشروع كانا يتحدثان وهما يتريضان فى أمسية يوم جميلة ، على ضوء النجوم ، تحت الأشجار العالية التى تحف بالميدان الرئيسى فى المدينة . فقد أتى الزوجان بعد هزيع من الليل كى يأخذا برتلده إلى هذه النزهة ؛ وكان الثلاثة يسيرون جيئة وذهوباً متحدثين باسهاب ، تحت السماء القاتمة الزرقة ، قاطعين حديثهم مرارا كى يتملّوا معجبين بمنظر النافورة ، وهى تنبثق فى منتصف الميدان ، وتغنى بقوة خارقة . فشعروا بأنهم مغتبطون كل الاغتباط ، راضون تمام الرضا ؛ وكانت أضواء المنازل

القريبة تنساب خلسة خلال ظلال الأشجار؛ وكان يطوف بهم همس رقيق، همس أطفال يلعبون ومتريضين آخرين يرفهون عن أنفسهم مثلهم بالسير ذهوباً وجيئة. فشعروا بأنهم فى عزلة، وبأنهم مرتبطون بعالم حى مرح، فى آن واحد معاً. ومابدا لهم فى وضح النهار مليئاً بالصعوبات، قد ذلل هنا بنفسه، ولم يعد الأصدقاء الثلاثة يفهمون بعد كيف وجدوا من قبل مانعاً فى أن ترافق برتلده الزوجين الشابين. ولكن فى اللحظة عينها التى راحوا فيها يحددون يوم رحيلهم المشترك، جاء اليهم من وسط الميدان رجل عملاق، انحنى أمام جماعتهم باحترام، وأسر فى أذن الزوجة الشابة شيئاً. فلما أسخطتها هذه المقاطعة وهذا المقاطع، ابتعدت مع الغريب بضع خطوات، وبدآ يهمسان سوياً ببضع كلمات، وقد بدا ذلك وكأنه بلغة أجنبية. أما هلدبرند فقد اعتقد أنه يعرف هذا الرجل الغريب، ورمقه بنظرة حادة لم يسمع معها كل الاسئلة الذاهلة التى ألقتها عليه برتلده ولم يجب عنها. وفجأة صفقت أندين بيديها وضحكت من أعماق قلبها وتركت الغريب قائماً، فابتعد هذا وهو يهز رأسه مرارا، بخطوات سريعة ساخطة ونفذ فى النافورة. حينئذ أيقن هلدبرند بأنه لم يكن واهما، ولكن برتلده تساءلت: «ماذا أراد بك المشرف على النافورة، ياعزيزتى أندين؟» فتهانفت المرأة الشابة وأجابت: «بعد غد، فى يوم عيدك، ستعرفين، أيها الطفلة العزيزة» ولم يظفر منها بأكثر من هذا. ثم دعت برتلده الى الافطار فى اليوم المذكور، مكلفة إياها بابلاغ

الدعوة إلى أبويها المتبنيين ، و بعد قليل كان فراق .

« كيلبورن ؟ » — هكذا سأل هلدبرند فى شىء من الدعوة الخفية زوجته الجميلة حين ودَّعا برتلده وعادا وحيدين إلى المنزل مارَّين بالشوارع التى ازدادت فيها الظلمة وخيم عليها السكون .
« أجل ، لقد كان إياه ، هكذا أجابت أندين . وقد رام أن يقص علىَّ الكثير من تُرَّهاته ! غير أنه أفادنى بخبر سعيد جداً ، على عكس ما كان يقصد ، وهو يخوض فى هذا الحديث . فإن شئت أن تعرف ما هو فى التو والساعة ، سيدى العزيز ، فما عليك إلا أن تأمر فأتحدث عن كل شىء ولكن عليك ، إن كنت تريد أن تهب أندينك سرور عظيما ، عظيما حقاً ، فانتظر يومين ، وسيكون لك بعد غد نصيبك من المُفاجأة » .

فنزل الفارس عن طيب خاطر ، وهمست أندين وهى تسعى للنوم باسمة بعينيها المغلقتين : « كم ستكون برتلده العزيزة ، العزيزة جداً ، مسرورة مشدوهة حين تعلم ما ذا كانت رسالة المشرف على النافورة ! » .

الفصل الحادى عشر

عيد ميلاد برتلده

انتظم عِقْدا الجلوس حول المائدة : برتلده ، وقد تزينت بالحَلْى والأزهار ، التى أهداها إياها أبواها المتبنيان لها وأصدقاؤها ، وجلست فى محل الشرف ، كأنها إلٰهة من آلهات الربيع ؛ وعلى جانبيها أندين

وهلدبرند . وحين أوشك الطعام الفاخر على الانتهاء وأديرت أطباق الفاكهة ، ظلت الأبواب مفتوحة ، وَفقْاً للعادة الجيدة القديمة الجارية في البلاد الألمانية ، كيما يكون في وسع الشعب أيضاً أن يرى ما يجرى ويشارك مسروراً في مباهج السادة . وكان الخدم يوزعون الخمر والفطائر . وبصبر نافد خفيّ كان هلدبرند وبرتلده ينتظران التفسير الموعود ، ولم يصرفا عيونهم عن أندين بالقدر الذى تسمح بذلك المواضعات . غير أن المرأة الشابة الخَوْد لم تنطق بكلمة أبداً ، ولم يبد منها غيرُ بسمة صامتة تؤذن بسرور باطن مستور ، وكان يبدو للذين كانوا على علم بالوعد المقطوع أنها كانت على بَتات [١] البوح بسرها الخلاب ، ولكنها كانت لا تزال تحتفظ به ، في شيء من الإعراض الشهيّ اللذيذ ، كما يفعل الأطفال أحياناً مع حلواهم المفضَّلة . وفي هذه العاطفة الرقيقة شاركت برتلده وهلدبرند ؛ فانتظرا برجاء يشوبه بعض القلق ، تلك السعادة الجديدة التي ستهبط عليهم كرقيق الندى من شفاه صديقتهم . وأخيراً طلب كثير من الحاضرين إلى أندين أن تغنى أنشودة . وبدا هذا الطلب موافقاً لما ترتجيه ، فأمرت في الحال باحضار عودها ، وأنشأت تغنى هذه الأنشودة :

صباحٌ مشرقٌ باهــرْ بزهْراتٍ عـــديدات
وعشبٌ ســامقٌ عاطر على شَطِّ البحــيرات
فما بالى أرى وَمْضا خلال العشب قد ألاّ

---

(١) على بتات : على وشك .

أهذى زهرةٌ بيضا هوَت فى العشب من أعلى

ألا لا ، إنه طفلٌ وذو حُسْن ، بلا وعىِ
بزهرٍ فاتن يسلو ونحو النور فى سعىِ

حبيبى الطفل ، من أينَ ؟ هنا جاءت بحيراتُ
بكم ، من شاطىء ، عنا تغطيه الجهالاتُ

حياةٌ أنتِ ذا غَضّةْ رقيق فى تجليكا
فلا تمدد يداً بضةْ فما أيدٍ تحييكا

غريب حال ذا الزهرِ ويدرى كيف يزدانُ
ويغزو الجوَّ بالعطر ؛ وما تؤْيك أحضانُ

فصدر الأم قد بانا ؛ ببابِ العيش لم تسعد
بأسمى كل آلانا فقدت الأم لم تشهد

لها وجهاً ، ولا تدرى ؛ وكانت بسمة الدنيا
على خديك فى طُهر ؛ خليق أنت بالرُّعيا

أتى دُوقٌ بأصحابه فأنهى عندكم سيرَه
وربا كم بآدابه وأُسكنتم به قصره

فأزهرتم وأشرقتم ولكن فيمَ لا يدرى
من الشطئان خلفتم فتونَ المتعة الكبرى

ثم تركت أندين عودَها يسقط من بين أيديها فى ابتسام حزين ؛ واغرورقت عيون أبوى برتلده المتبنيين لها بالدموع ، وقال الدوق وقد غلبه التأثر : « هكذا وجدتُكِ صبيحة ذات يوم ؛ وإن المغنية الجميلة لعلى حق فيما تروى : فإن أغرب السعادات لم نستطع أن نقدمه إليك على الرغم من كل مانحمله من عطف عليك وحب لك .

— ولكن يجب علينا أن نسمع أيضاً ماذا كان مصير أهلها المساكين ، هكذا قالت أندين وهزت الأوتار ، ثم غنت:

ومن باب إلى باب تروح الأمُّ فى حيره
تفتّش كل دولاب وكل الدار كالقفره

أقفرٌ ! يا لهـا بلوى لأمٍّ طفلَها ترعى
نهاراً لاهياً حلوا وليلاً نائماً يغفى

يعود الدوح فى النضّر وتسمو الشمس فى المطلعْ
ولكن ، أمُّ ، لا تجرى فإن الطفل لن يرجع

يهب الليل بالنسم فيغدو الأب للدار
تهمُّ العين بالبسم إذا دمع بهـا جارِ

يعود الأب للبيتِ بما يلقى على علمِ :
أنينِ الأم والموتِ وما للطفل من بسْمِ

فصاحت برتلده وهى فى فيض من الدموع : « أندين ، نشدتك

الله ، أين أبواى ؟ انك لا تجهلين مكانهما من غير شك ، فقد علمتيه ، أيتها المرأة الراسخة فى العلم ، و إلا فستمزقين نياط فؤادى ! لعلهم أن يكونوا هنا ؟ أحق هذا ؟ » وأجالت نظرها فى الجمع الحافل ، ثم توقفت عند أميرة من أميرات البيت المالك كانت جالسة إلى جوار أبيها الذى تبناها . حينئذ عادت أندين بوجهها ناحية الباب ، وفى عينيها أعذب انفعال ، وسألت : « أين إذن هذا الأبوان اللذان ينتظران منذ زمان طويل ؟ » وهنا انفصل الصياد الشيخ مع امرأته عن جموع الناظرين ، وتقدما بخطوات مترنحة . وكانت عيونهم المليئة بالتساؤل تقع حينا على أندين ، وحيناً آخر على الآنسة الجميلة التى لا بد أن تكون ابنتهما . « إنها هى » ، هكذا تمتمت المرأة التى لذ لها إسعاد الناس (أندين) ، وتعلق الشيخان بابنتهما التى وجداها من جديد ، وهم يبكون و يحمدون الله .

ولكن برتلده انتزعت نفسها من ضمامهما ، فى ذعر وغضب . فقد كان هذا الاكتشاف العلنى ضربة قاضية لنفس متكبرة كهاتيك ، فى اللحظة التى كانت موقنة فيها بأنها ستزيد مما نعمت به حتى الآن من بهاء وجلال ، وعند الساعة التى انتشت فيها بالأمل العذب ، أمل أن ترى الأكاليل والتيجان تتهاوى على هامتها . فبدا لها أن هذه مؤامرة دبرتها منافستها كى تدمغها أمام هلدبرند وأمام الجمع الحافل بالذل والعار .

وشرعت تلعن أندين ، وتصب الشتائم على الشيخين ،

وانطلقت من فيها عبارات سافلة : « كذابة ! مأجورة ! » .
هنالك لم تتفوه امرأة الصياد الشيخة إلا بهذه الكلمات ، قالتها بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها : (إلهى ! لقد أصبحت امرأةً شريرة ، ومع هذا ، فإنى أشعر فى أعماق قلبى بأنها مولودتى » . أما الصياد الشيخ فقد ضم يديه ، ودعا فى صمت ، سائلا الله ألا تكون هذه البنت ابنته . وكانت أندين ، وعليها شحوب الموت ، تميل تارة إلى ناحية برتلده ، وأخرى ناحية أبويها ، وكأنها قد هوت من أعلى السماء التى حَلُمت بها ، هوت فريسة جزع وفزع لم تعان مثلهما من قبل فى سالف الأيام : « ألك نفس ؟ ألك نفس حقاً ، يا برتلده ؟ » هكذا صرخت مراراً فى وجه صديقتها المهتاجة ، قاذفة بهذا السؤال فى وجهها ، وكأنها تريد أن تنزعها بشدة من نوبة جنون أو هذيان كابوس رهيب ، كيما تعود إلى نفسها . ولكن لما رأت غضب برتلده يزداد عنفاً وشدة ، ورأت الأبوين المُنْكَرين قد بدآ فى العويل ، وأن المدعوين قد انقسموا إلى فريقين متعاديين وشيع متنابزة ، نهضت فجأة كى تطلب السماح لها بأن تقول هنا بضع كلمات ، هنا فى حجرة زوجها ، وكان التماسها بلهجة فيها من الجد والحزم ما جعل كل من حولها يلتزم الصمت ، وكأنهم أذعنوا لإشارة . حينئذ صَعَدتْ على المنضدة ، هناك حيث جلست برتلده ، وفى تواضع وفخر ، وكل العيون عليها ، قالت هذه الكلمات :

« أنتم يامن اتخذتم مظهر العداء وخرجتم هكذا عن أطواركم، يا من أفسدتم بقسوة ذلك السرور الذى أملت من ورائه صفو النعيم ، لم أكن أعرف ، يا ربى ، شيئاً عن طباعكم الحمقاء وقلوبكم القاسية ، ولن يكون فى وسعى فهمكُم طوال الحياة . فإذا كنت قد أسأت المدخل ، فليس الذنب ذنبى ، وإنما ذنبكم أنتم ، صدقونى ، وإن كنتم تعتقدون العكس من هذا تماماً . أنا أعرف هذا ، ولذا ليس لدى ما أقوله لكم بعد إلا القليل . ولكن شيئاً يجب أن يقال ، ألا وهو أنى لم أكن كاذبة فيما قلت . ولست أستطيع ، بل ولا أريد ، أن أضيف حججاً إلى ما أكدته لكم ، ولكنى أقسم بأنه صدق . والذى قال ذلك لى ، هو بعينه الذى انتزع برتلده من أبويها بجرها إلى الماء ، وتركها من بعد على المروج الخضراء ، هناك حيث سيمر الدوق بعد قليل .

— هذه ساحرة ، هكذا صاحت برتلده ، عرّافة على اتصال بالأرواح الخبيثة ! أو لا تعترف هى بذاك ؟

— كلا ، لا أعترف به ؛ هكذا صاحت أندين ، وفى عينيها سماء من البراءة واليقين الواثق . ولست أيضاً عرافة ، أنظرى فحسب فى عينى !

فقاطعتها برتلده : إذن هى تكذب وتتبذخ ، إنها لا تستطيع أن تقول إننى ابنة هؤلاء الناس الوضعاء ، فيأيها الدوق ، ويأيتها الدوقة ، أنتما أبواى، أستحلفكم بالله أن تخرجوا بى بعيداً عن هذه الجماعة ، بعيداً عن هذه المدينة، التى لا يريد فيها أحد غير إهانتى» .

ولـكن الدوق الشيخ الشريف ظل ساكناً ، وتحدثت زوجته فقالت : « لا بد قطعاً من أن نتبين جلية الأمر . وأعوذ بالله إن تقدمت خطوة خارج هذه الغابة قبل أن تعرف الحقيقة على وجه اليقين » . وهنا أقبلت زوجة الصياد الشيخة وقالت : « إن كلماتك تغص فاى ، أيتها السيدة النبيلة الورعة . وعلىّ أن أقول لك إنه إذا كانت هذه الآنسة الشريرة ابنتى ، فانها تحمل علامة شبيهة بالبنفسجة بين كتفيها ، وأخرى مماثلة على عنق قدمها اليسرى . فلو سمحت بالخروج معى من القاعة . . .
— ولـكنى لن أتعرى أمام هذه الفلاحة ، هكذا قالت برتلده ، مديرة إليها ظهرها بأنفة وتكبر . — ولـكن أمامى أنا ، هكذا أجابت الدوقة فى جد وصرامة . فاتبعينى إلى هذه الغرفة ، أيتها الآنسة ، والعجوز الطيبة معنا » . واختفى الثلاث جميعاً ، وبقى الآخرون ، يشملهم الصمت ويشيع فى نفوسهم القلق المترقّب . وبعد قليل عاد النسوة ، وعلى برتلده شحوب الموت ؛ فقالت الدوقة : « يجب أن نحترم الحق دائما ، ولذا أعلن أن مضيفتنا النبيلة لم تقل إلا الصدق ، فبرتلده هى ابنة الصياد ، وهذا كل ما تفيد معرفته هنا » . وغادر الدوق والدوقة القاعة مع ابنتهما المتبناة . وباشارة من الدوق ، تبعهما الصياد وزوجه . وخف باقى المدعوين فى صمت ، متبادلين أحاديث هامسة ، وسقطت أندين بين ذراعى هلدبرند ، وهى تبكى مر البكاء .

الفصل الثانى عشر

كيف غادروا المدينة

لا شك فى أن فارس رِنْجِشْتِتِن كان يفضل أن تأخذ الأمور ذلك اليومَ مجرى آخر . ومع هذا فانها وكما حدثت ، لم تؤلمه بعد ، منذ اللحظة التى تبدت فيها امرأته الفاتنةُ ورعة طيبة شجاعة على هذا النحو . ولم يتمالك من أن يقول لنفسه : « إذا كنت قد أعطيتها نفسا ، فان هذه النفس التى منحتها إياها خير قطعاً من نفسى » . ولم يعد يفكر إلا فى شىء واحد ، هو أن يجد من الكلمات ما يرفه به عن نفس تلك التى تبكى فى غير انقطاع ، وأن يرحل من الغد معها عن تلك الأماكن التى صارت بغيضة إلى نفسه ، منذ أن حدث ما حدث . ومع هذا ، والحق يقال ، فإن الناس لم تسىء الحكم عليها . فإنه كان ينتظر منها أن تقول شيئاً عجيباً رائعاً ، ولذا لم يدهشوا كثيراً للطريقة الغريبة التى كشفت بها عن أصل برتلده ؛ وإنما كانت القسوة موجهة إلى هذه الأخيرة وحدها ، قسوة هؤلاء الذين عرفوا هذا الخبر وما أثاره من غضب هائل فى نفس الفتاة . ولكن الفارس وزوجته كانا يجهلان بعدُ كل هذا ؛ وسيكون من المؤلم حقاً فى نفس أندين أن تعرف أن برتلده أسىء الحكم عليها . فلم يبق شىء إذن يعملانه خيراً من أن يدعا خلف ظهورهم أسوار المدينة العتيقة فى أقرب وقت مستطاع .

فلم تكد أنوار الصباح الأولى ترف حتى كانت عربة بديعة فى انتظار أندين أمام باب الفندق ؛ وإلى جوارها كان جواد هلدبرند وخيول حاشيته تُكْدِف . فأعطى الفارس يده لزوجه الجميلة ليعينها على تخطى الوصيد ، حين أقبلت صيادة شابة تعترض طريقهم؛ فقال لها هلدبرند : «لسنا فى حاجة إلى بضاعتك ، فإنا راحلون فى الحال » . فراحت الصيادة الشابة تذرف مرّ العبرات ، وحينئذ عرف فيها الزوجان برتلده ، فدخلا سريعاً معها إلى غرفتهم ، وعرفا منها أن الدوق والدوقة قد أحفظتهما القسوة التى أبدتها عشية الأمس إلى درجة أنهما سحبا منها كل حماية وعناية ، وإن كانا قد أتحفاها أيضاً ببائنة ثمينة ؛ والصياد هو الآخر قد أُعطى هبة جيدة ، وفى المساء بالأمس اتخذ سبيله مع زوجته إلى شبه الجزيرة .

« وقد رغبت فى الرحيل وإياهم ، هكذا استمرت برتلده فى حديثها ، ولكن الصياد الشيخ الذى تقولين عنه إنه والدى...

— وهو حقاً كذلك ، يا برتلده ، هكذا قالت لها أندين مقاطعة . ألا فلتعلمى أن هذا الذى ظننته المشرف على النافورة هو الذى أنبأنى بذلك بالتفصيل . فقد شاء أن يصرفنى عن أخذك معنا إلى قصر رنجشتتن ، وإبان حديثه فرط منه هذا السر .

— والآن إذن ، هكذا قالت برتلده ، قال لى أبى — أبى ما دام الأمر كذلك — : « لن أقبلك لدينا إلا إذا صرت فتاة

أخرى . نخاطرى وحدك باجتياز الغابة التى يقولون إنها مسكونة وائت إلينا ؛ وهذا سيكون الشاهد على أنك تقدر ينا حق القدر ولـكن لا تأتينا آنسةً مرفّهة ؛ بل على هيئة ابنة صيادين ! »
وهأنذا أريد أن أفعل كما طُلِب إلىّ ، لأن النــاس هجرونى أجمعين ، وسأحيا وأموت فى الوُحْدة ، ابنةَ صيادين مسكينة ، مع أبوىّ الفقيرين . أجل ، أنى فزعة من الغابة أشد الفزع ، لأنهم يقولون إنها مسكونة بأشباح رهيبة ، وأنا فتــاة هلوع . ولـكن ما العمل ؟ لقد أتيت هنا كى ألتمس منكِ ، يا سيدة رنجشتن النبيلة ، أن تغفرى لى مسلـكى بالأمس ، هذا المسلك الشائن . أنا أعلم تمام العلم أنك كنت حسنة القصد ، أيتها السيدة الرشيقة ؛ ولـكنك لم تعرفى إلى أى حد كنت بذاك تهيننى . ففرطت منى ، إبان جزعى وذهولى ، كلماتٌ جارحة جنونية . فاغفرى لى ذنبى ، واصفحى عنى ! هأنذا قد أصبحت شقية بائسة : إذ صوّرى لنفســك ماذا كنت بالأمس ، والأمس فقط ، فى مستهل احتفالكم ، وماذا صرت إليه اليوم ! »

وكانت كلماتها تضلّ فى فيض من العبرات الأليمة ، وأندين عالقة بجيدها وهى تُسْبِل عبرات لم تــكن أقل من عبراتها مرارة. ومرت دقائق طوال قبل أن تستطيع الزوجة الشابة التى استولى عليها التأثر أن تفوه بكلمة . ثم قالت من بعد : « أريد أن تأتى معنا إلى رنجشتن ؛ ولا أود أن يتغير شىء مما اتفقنا عليه من قبل ؛ ولا تناديني إلا باسمى ، لا بقولك سيدتى ، أو أيتها السيدة

النبيلة . ألا فلتعلمى أننا تبودلنا ونحن أطفال ؛ ومنذ ذلك الحين ومصائرنا متشابكة متعانقة ؛ ونريد من جديد أن نشابك بينهما منذ الآن فصاعداً بطريقة وثيقة جداً حتى لا يكون فى وسع أية قوة إنسانية أن تفصل بينهما . ولكن تعالى معنا أولا إلى رنجشتتن ؛ فهناك سنتفاوض على الطريقة التى نكون بها شريكتين كأختين » . فرفعت برتلده نظرة حيية إلى هُلدبرند ، وقد أخذته الشفقة على هذه الفتاة الجميلة المُنوَّطة الروح ، فمد إليها يده ، ودعاها إلى الثقة به وبزوجه والاطمئنان إليهما فى لهجة مُلاطِفة ، وقال : « سنبعث إلى أبويك برسالة نشرح لهما فيها لماذا تخلفت » . وأراد أن يضيف كلاماً آخر بصدد الصيادَيْن الطيبين ، ولكنه لما رأى برتلده تتميز ألما وهى تسمع اسميهما ، وجد من الخير ألا يتحدث عنهما فى قليل ولا كثير . بل أخذها تحت إبطه ، وأعانها على الصعود أولا فى العربة ، وبعدها أندين ، وخفر عليهما مرحاً يسير بجواده سير الخبب ، حاثاً السائق على السير بسرعة حتى كانا عما قليل خارج حدود المدينة ، تاركين وراءهم جميعاً ذكرياتهم الحزينة ، وركبت الزوجة الشابة والفتاة خلال المناطق الجميلة التى اجتازوها ، وهم فى سرور أكبر وأتم .

وبعد بضعة أيام من السفر ، وصلوا فى أمسية جميلة إلى قصر رنجشتتن . وهنا كان على الفارس الشاب أن يستمع إلى تقريرات وكلائه وأتباعه العديدة ، لذا جعل أندين وحدها

باقية مع برتلدة . فتربضا سوياً عند أسوار القصر ، ناعمتين بالمنظر الفاتن الذى أبداه أمام نواظرهم وحواليهم إقليم اشڤابن المبارك . ولكن ها هو ذا رجل عملاق قد أقبل عليهما فحياهما بوقار ؛ رجل بدا لبرتلدة شبيهاً كثيراً بالمُشْرِف على النافورة فى المدينة العتيقة . وتبينت لها المشابهة على وجه أكثر يقيناً حين زجرته أندين بحركة غاضبة بل ومهدِّدة ، وحين رأته يجرى بسرعة وهو يهز رأسه كما فعل قبلُ ، ثم يختفى فى أيكة مجاورة . ولكن أندين قالت : « لا تفزعى ، يا عزيزتى الصغيرة برتلده ؛ فان المشرف على النافورة لن يصيبك هذه المرة بسوء » . وهنا أنبأتها بالخبر بالتفصيل ، وأنبأتها من هى نفسها ، وكيف انتزعت برتلده من الصيادين ، وكيف أتتهما أندين . ففزعت الفتاة من هذا الحديث أول الأمر ؛ واعتقدت أن صديقتها أصابتها نوبة جنون مفاجئة . ولكنها أيقنت شيئاً فشيئاً أن كل شىء كان صدقاً وحقاً ، بعد أن أقنعتها أندين بأقوالها الملتئمة المنطقية التى كانت متفقة تمام الاتفاق مع كل الظروف السابقة ، كما أقنعها أيضاً هذا الشعورُ الباطن الذى لا يتخلف مطلقاً عن إقناعنا بالحقيقة ، حين تبدو لنا . وبدا لها من الغريب حينئذ أن تحيا هى نفسها الآن فى أحضان أسطورة من أساطير الجن ، التى لم تكن تعرف منها حتى الآن إلا ما كان يُقص عليها منها . ونظرت إلى أندين نظرة إجلال ، دون أن يكون فى وسعها مع ذلك التخلص من خوف كان يدب بينها وبين صديقتها . وفى أكلة المساء ،

دهشت من كون الفارس قد بدا عاشقاً متعلقاً بكائن بدا له منذ هذه الاكتشافات الأخيرة أقرب إلى الشبح منه إلى الانسان .

الفصل الثالث عشر

كيف عاشوا فى قصر رنجشتين

من يروى هذه القصة يرويها لأنها تهز أوتار قلبه ، ولأنه يود أن يهز بها أوتار قلوب آخرين . وهو يلتمس منك ، أيها القارىء العزيز ، أن تغتفر له أن يمر عابراً بفترة طويلة ، فلا ينبئك عما حدث فى أثنائها إلا بكلمات قصار . أجل ، إنه ليعرف أن فى وسع المرء أن يتابع خطوة خطوة ويشرح ، وفقاً لقواعد الفن ، وبالدقة ، كيف بدأ قلبُ هلدبرند ينصرف عن أندين إلى برتلده ، وكيف أقبلت برتلده على الرجل الشاب بعاطفة من الحب مشبوبة ، وكيف أنه هو وهى قد بدآ ينظران إلى الزوجة المسكينة نظرتهما إلى كائن غريب يدعو إلى التهيب أكثر مما يدعو إلى الشفقة ؛ وكيف كانت أندين تُسيل الدموع فتثير بها الوَخَزات فى ضمير الفارس ، لكن دون أن تنبه فيه الحبَّ القديم ، إلى درجة أنه كان يبدى لها أحياناً شيئاً من الصداقة ، ولكن سرعان ما يبعده عنها خوفٌ باردٌ يدفعه إلى برتلده ، نحو تلك التى تنتسب كما ينتسب هو إلى بنى الانسان . ومن يكتب هذه السطور يعرف أن فى الوسع تنمية هذا وتفصيله بطريقة منظمة ، ولعل الواجب عليه أن يفعل ذلك . ولكن قلبه سيألم لهذا أعنف الألم ، لأنه

مر بتجارب شبيهة بهذه ، ولا يزال يفزع ، حتى فى الذكرى ، من ظلال تلك التجارب[١] .

ولعلك تعرف ، أيها القارىء العزيز ، شعوراً كهذا الشعور ؛ لأن هذا مصيرنا معشر البشر الفانين ، شئنا ذلك أو لم نشأ . ألا فلتهنأ بالاً ، إذا كنت ، فى مثل هذه الظروف ، قد أخذت أكثر مما أعطيت ، لأن السعادة هنا فى الأخذ أكثر مما هى فى الإعطاء . حينئذ لن تثير فى نفسك هذه الذكرياتُ غيرَ ألم لذيذ حبيب ، ولن تدفع فوق خدك غير دمعة رقيقة عذبة ، تساقط على رياض الأزهار الذابلة الآن، وقِدْماً طالما سَرَّت قلبك حين كانت مونقة ناضرة . ولكن كفى من هذا ؛ فلسنا نريد تمزيق القلب بكل هذى الجراح . ولنقتصر على ما أشرنا اليه من قبل ، مما أفضى إلى هذا الموقف .

فأندين المسكينة قد توزعتها الهموم ؛ والآخران لم ينعما بالرضى والحبور ؛ خصوصاً وأن برتلده ، حين كانت لا ترى الأمور تجرى على ما تهوى تماماً ، كانت ترى فى ذلك أثراً من آثار ضَغْطٍ غيران من جانب الزوجة المُهانة . ثم هى اعتادت أن تتخذ لهجة السيد الآمر ، وهى لهجة أذعنت لها أندين فى نوع من الإنكار للذات محزون ؛ وهلدبرند بدوره كان قد ران

(١) يرى ماكس كوخ فى مقدمة المجلد الخاص بفوكيه فى « الأدب الوطنى الألمانى » ، وهى المجموعة التى تخرج باشراف كورشنر ، المجلد رقم ١٤٦ ، القسم الأول ، أن فوكيه يشير هنا إلى تجربة شخصية ، هى تجربة فراقه لزوجته الأولى .

على عينيه إلى درجة احتمال الفتاة علناً وصراحة . وزاد من اضطراب أهل القصر إلى درجة عميقة تلك الرؤى الغريبة المتعددة التى كانت تظهر لهلدبرند و برتلده وهما يمران خلال أروقة القصر ذات القباب ، وهى رؤى لم يسمع بمثلها من قبلُ إنسان . ذلك أن العملاق الأبيض ، الذى كان هلدبرند يعرف فيه شخص العم كيلبورن ، وتعرف فيه برتلده شخص المشرف على النافورة الخيالى ، كان كثيراً ما يقترب منهما ، ومن برتلده خصوصاً ، مهدّداً ممعناً فى التهديد ، إلى درجة أن هذه الفتاة قد اضطرت مراراً ، وقد أمرضها الفزع ، إلى التزام الفراش ، وفكرت أحياناً فى مغادرة القصر . ولكن هلدبرند كان عزيزاً لديها ، وفى هذا الحب كانت تشعر ببراءتها ، لأن الأمور لم تصل مطلقاً إلى حد الاعتراف الصريح ؛ و إلى جانب هذا ، لم تكن تدرى أين تذهب ، إن هى غادرت هذا المكان . ثم إن الصياد الشيخ قد أجاب على الرسالة التى بعث بها سيد رنجشتتن لينبئه فيها بأن برتلده عنده ، أجاب عليها بكلمات من الصعب أن تقرأ ، كلمات خطها بالقدر الذى سمحت به سِنّه وقلة اعتياده : « لستُ اليوم غير أيّم مسكين ، لأن الموت قد سلبنى زوجى العزيزة . ولكن ، وعلى الرغم من أنى وحيد هنا فى كوخى ، فإنى أفضل أن تكون برتلده لديك ، كل هذا بشرط أن لا تصيب عزيزتى أندين بسوء ! وإلا فإنى ألعنها » . هذه الكلمات الأخيرة قد تركتها برتلده تذهب أدراج الرياح ، أما نصحه بأن تظل بعيدة

عن أبيها ، فهذا أمنت عليه واحتفظت به بعناية ، كما هي عادتنا دائماً معشر الآدميين فى مثل هذه الأحوال .

وذات يوم ، كان هلدبرند قد امتطى صهوة جواده وغدا يرتاض ؛ فجمعت أندين الخدم الذين فى القصر ، وأمرت باحضار حجر كبير ، طلبت منهم أن يغطوا به بدقة ، العين الفخمة التى كانت تجرى فى وسط بهو القصر . فاعترضوا عليها بأنهم سيكونون حينئذ مضطرين إلى الانحدار بعيداً إلى الوادى للتزود من الماء ثم العودة منه صاعدين . فابتسمت أندين آسفة محزونة ، وأجابتهم قائلة : « يؤسفنى أن أزيد هكذا من عنائكم ، يا أولادى الأعزاء ؛ و بودى لو حملت أنا بنفسى أباريق الماء . ولكن هذا ضربة لازب . فليس بد من أن يقفل الينبوع . صدقونى من مجرد كلامى ؛ وليس فى الوسع أن يكون الأمر على غير هذا النحو ، فليس من سبيل غير هذا لتجنب كارثة أعظم » . وَسَرَّ الكلَّ أن يُرضى سيدته اللطيفة ، دون أن يسأل سؤالا آخر . فحاولوا وضع الحجر العظيم فى المكان المعين ؛ غير أنه كان يقفز من بين أيديهم باستمرار ، وكان يتذبذب على العَيْن حين هُرِعت برتلده وصاحت فيهم بالتوقف عما يفعلون ، لأنها تحتاج من هذه العين الماء الذى تستخدمه لزينتها ، هذا الماء الملائم لبَشَرتها كل الملاءمة ، فلن تسمح إذن مطلقاً باغلاقها . ولكن أندين أصرت هذه المرة على رأيها بصلابة غير معتادة ، و إن كان ذلك بلطافتها المعهودة . فصرحت بأنها هى وحدها ، باعتبارها ربة القصر ،

صاحبة الحق فى الأمر بما تراه صالحاً فى المنزل ؛ وأنها ليست مسئولة عما تفعل إلا أمام سيدها . فصاحت برتلده ، مُخْتنقة قلقة ، : « أنظروا ، أنظروا إذن ؛ إن هذا الماء الجميل المسكين يتوثب ويتدافع لأنه يراد أن يسلب عنه نور الشمس الوضاءة ، ويحال بينه و بين التمتع برؤية الوجوه الإنسانية التى خلق من أجل أن يعكسها ! » وقد كان الماء فى العين يَصفِر حقاً ويَنِشّ على نحو غريب كل الغرابة ، وكأن شيئاً ما يريد الخروج منه بقوة ؛ ولكن أندين لم تكن مع ذلك أقل إصراراً بحزم وصرامة على تنفيذ أوامرها . وهى أيضاً لم تكن فى حاجة إلى كل هذا الاصرار والالحاح . فان خدم القصر كانوا سعداء بإطاعة سيدتهم الرقيقة قدر سعادتهم بعصيان كبرياء برتلده وغطرستها . وعبثاً حاولت هذه أن تحتد وتنتهر وتهدد ، فسرعان ما كان الحجر محكم الوضع على فوهة العين . وانحنت أندين من فوقه مُطْرِقة مفكرة ؛ ثم رسمت ببنانها الجميل خطوطاً على السطح . ولا بد أن يكون فى يدها شىء حاد قارض جداً ، لأنها حين ابتعدت واقترب الآخرون ، رأى هؤلاء على الحجر علامات غريبة ، لم يستطع أحد من قبل أن يراها .

عاد الفارس فى المساء ، فاستقبلته برتلده بفيض من العبرات وسيل من الشكاوى من مسلك أندين . فنظر إلى هذه بوجه قاس مُغْضَب ، فأطرقت الزوجة الشابة حزينة كاسفة البال . ولكنها قالت فى شىء كثير من رباطة الجأش : « إن سيدى

لا ينتهر أحد عبيده قبل أن يسمعه أولا ، فكم بالأحرى يجب عليه أن يفعل ذلك مع زوجته الوفية » . فسألها الفارس ، بوجه مكتئب ، قائلا : « تكلمى ! ماذا دفع بك إلى هذا الفعل الغريب ؟ » فتنهدت أندين قائلة : « أود أن أنبئك أمر هذا وحدك » . فأجابها : « وتستطيعين أيضاً فى حضرة برتلده » . فقالت أندين : « أجل ، إن أمرت ؛ ولكن لا تأمر ؛ أوه ، أستحلفك بالله ، أتوسل إليك ، لا تأمر بذلك » . وكانت ملامحها متخشّعة عذبة خاضعة حتى إن قلب الفارس قد أشرق لشعاع شمس الأيام الجميلة الخالية . فأخذها بين ذراعه بطريقة ملؤها الود ، وقادها إلى حجرته ، حيث راحت تقص أنباءها على هذا النحو :

« إنك لتعرف العم كيلبورن الشرير ، أيها السيد الحبيب ؛ تعرفه معرفة جيدة ، وقد التقيتَ به فأسخطك ، فى أروقة هذا القصر . بل إنه أخاف برتلده أحياناً إلى درجة إمراضها . وعلة هذا أنه ليس بذى نفس ؛ إنه ليس إلا مرآة عنصرية للعالم الخارجى ، غير قادر على أن يعكس العالم الباطن . وهو يراك أحياناً غير راضٍ عنى ، وأن هذا يحملنى على البكاء ، أنا الطفلة ، بينما يرى برتلده تضحك فى نفس الآن ، وقد يكون ذلك اتفاقاً وصدفة . حينذاك يتصور كلَّ أنواع الشرور ، ويتدخل بيننا بطرق عديدة ثقيلة . وماذا يجدى أن أنتهره ؛ أو أن أطرده بجفاف ؟ إنه لا يصدق كلمة واحدة من الحقائق التى أفضى بها

إليه ؛ لأنه ليست لديه ، فى حياته الضيقة التى يحياها ، أية فكرة عن صلة القربى الوثيقة التى تقيم بين مباهج الحب وآلامه مشابهة عذبة جميلة ، وتربط بينهما برباط محكم لا يمكن لشىء أن يفصم عراه : فمن ينبوع الدموع تنبثق البسمات ، والبسمات تجذب الدموع من مستودعها وملاذها » .

ورفعت عينيها إلى هلدبرند باسمة باكية معاً . فشعر الفارس بأن سحر الحب القديم قد بعث فى قلبه من جديد ؛ وأحست هى بهذا ، فجذبته إليها ، واستمرت تواصل الحديث ، مُسْبلة دموعاً حارة :

« ولما كان هذا المعكر صفو السلام لا ينصرف بواسطة الكلمات ، لم يكن أمامى إلا أن أغلق من دونه الباب . والباب الوحيد الذى فى حوزته للدخول إلى هنا ، هو تلك العين . ذلك أنه فى شقاق مع أرواح العيون الأخرى فى هذه المنْطقة ، ومع أرواح الأودية المجاورة ، ولا تبدأ قوته من جديد إلا بعيداً هنا على الدانوب ، حيث خلط بعض أصدقائه الأوفياء أمواجَهم بأمواج هذا النهر العظيم . لهذا أمرت بوضع الحجر على فوهة العين ، ورسمت عليه علامات من شأنها إعجاز هذا العم الغضوب الغيور ، مهما تكن قوته ، حتى إنه لن يستطيع منذ الآن أن يأتى لمعاكستكما ، أنت وبرتلده ا أما البشر ففى وسعهم أن يرفعوا الحجر بمجهود عادى جداً ، على الرغم من العلامات ، فهى ليست عقبة لديهم . فإن شئت رفعه ، فارفعه نزولا على

رغبة برتلده ، ولكنها لا تعرف فى الواقع معنى ما تطلب ؛ فإن كيلبورن غير المؤدب يقصد معاً كستها هى بالذات على وجه الخصوص ؛ و إذا حدث ما تنبأ به أمامى ، وهو شىء يمكن جداً أن يحدث دون أن يكون ذلك منك عن سوء قصد ، أيها الحبيب العزيز ، فإنك أنت لن تكون بمأمنٍ من الخطر ! » .

فتأثر هلدبرند إلى أعماق فؤاده من سراوة أخلاق زوجته البديعة ، التى عنيت كل هذه العناية بإغلاق الباب دون حاميها الخطير ، والتى احتملت فى سبيل هذا من جانب برتلدة شيئاً من العنت . وأقبل عليها يضمها بحرارة بين ذراعيه ، و يقول لها فى شىء من التأثر : « سيظل الحجر باقياً على العين ، يا أندينى الصغيرة العذبة » . فتدافعت أندين عليه وقد سرتها ، فى تواضعٍ ، هذه الكلماتُ الغرامية التى حرمت منها منذ زمان طويل ، وقالت له أخيراً : « يا صديقى الحبيب ، ما دمت اليوم رقيقاً كل هذه الرقة ، طيباً كل هذه الطيبة ، فهل لى أن أجرؤ فأطلب إليك أمرا ؟ إن الأمر معك ، كما ترى ، كالأمر مع الصيف . ففى نفس الساعات التى يكون فيها فى أوج جلاله ، يتوج هامته بتاج ملتهب مرعد من العاصفة الرائعة ، يبدو فيه كسلطان حقيقى و إله فى الأرض . وهكذا أنت ، تُبرق بين الفينة والفينة بلسانك وعينيك ، ولا تجد فى هذا إلا الراحة ، و إن كان هذا يجعلنى ، فى حمقى ، أذرف الدمع أحياناً . ولكن لا تفعل هكذا أبداً حين تكون على سطح الماء ، أو على مقربة منه . فإن أهلى

سيكون لهم علىّ حينئذ حق ؛ وسينتزعوننى ثمتئذ منك فى غير هوادة ولا لين وهم فى غضب مهتاج ، لأنهم سيشعرون بأن واحداً من بينهم قد أُهين . و إذا قدر لى طوال محياى أن أسكن هناك ، هناك فى قصور البلّور ، وأن لا يسمح لى مطلقاً بالعوْد إليك ، أو إذا أرسلونى كى أسعى باحثة عنك ، فسيكون هذا داهية الدواهى ، يا إلهى . كلا ، كلا ، يا صديقى الرقيق ، تجنب أن تصل الأمور إلى هذا الحد ، بالقدر الذى تحب به أندينك المسكينة » .

فأقسم لها بكل مُحْرِجة من الأيمان أن يفعل ما طلبت إليه ، وخرج الزوجان من الحجرة سعيدين كل السعادة ، مليئين بأعمق الحب . وهنا أقلبت برتلده مع بعض من الفعَلة أرسلت فى طلبهم من أسفل الوادى ، وقالت فى اللهجة الشرسة التى اعتادتها منذ زمان : « والآن ، أظن أن الحوار السرّى قد انتهى أخيراً ويمكن أن يرفع الحجر » . ثم قالت مخاطبة الفعلة : « هيا ، أيها الناس ، افعلوا هذا » . ولكن الفارس ، وقد أحفظته غطرستها ، قال فى حزم وصرامة و إيجاز : « سيبقى الحجر حيثما هو » . وأنحى باللائمة على برتلده بسبب عنفها قِبَل أندين . وهنا غدا الفعلة ، وهم يخفون بسمة راضية ، بينما هُرِعت برتلده شاحبة من الجانب الآخر إلى مخدعها .

ودقت ساعة العشاء ، وعبثاً كانوا ينتظرون برتلده . فأرسلوا

فى طلبها . ولكن الحاجب وجد غرفتها خالية ، ولم يعد إلا ببطاقة مختومة معنونة باسم الفارس . ففضها هذا مشدوهاً وقرأ فيها :

« أشعر فى تواضع بأنى لست إلا ابنة صيادين مسكينة . فاذا كنتُ قد نسيتُ هذا أحياناً ، فسأكفر عنه فى كوخ أهلى الحقير ، وعش سعيداً مع زوجك الجميلة ! » .

فحزنت أندين لهذا أصدق الحزن . وتوسلت إلى هلدبرند أن يسعى سريعاً بحثاً عن الصديقة الهاربة كى يردها . ولكن وآسفاه ! لم تكن هى فى حاجة إلى أن تحثه هو ؛ إذ انبثق ميله إلى برتلده بشدة وعنف ، فأُهْرِع إلى القصر كله يسأل من فيه عما إذا كان أحدهم يعرف الطريق الذى اتخذته الهاربة الجميلة . غير أنه لم يقف على شىء ؛ وسرعان ما امتطى صهوة جواده ، فى بهو القصر ، عازماً على أن يسلك صدفةً السبيلَ الذى اتخذه عائداً هنا ببرتلده . وهنا وصل حاملُ سلاحٍ أكد له أنه قابل الآنسة فى الطريق المؤدى الى وادى السواد . فاجتاز الفارس الباب كالسهم فى الاتجاه المشار إليه ؛ دون أن يسمع صوت أندين الجزِعَ وهى تصيح مطلةً من النافذة : « أذاهب أنت إلى وادى السواد ؟ كلا ، كلا ، لا تذهب إلى هناك ، أىْ هلدبرند! لا تذهب أناشدك الله وإلا خذنى معك ! » ولما رأت صيحاتها تذهب سدى ، ركبت على عجل رهوانتها البيضاء ، وسارت سير الخبب فى إثر الفارس ، دون أن تَقْبَل الخفرَ عليها من أحد أتباعها .

الفصل الرابع عشر

كيف عادت برتلده إلى القصر مع الناس

وادى السواد واد يرقد عميقاً فى داخل الجبال . لا يعرف أحد ما اسمه اليوم ؛ ولكن أهل الاقليم كانوا يسمونه فى ذلك العهد بهذا الاسم ، نظراً إلى الظلمة العميقة التى كانت تنشرها عليه الأشجار الباسقة ، وعلى رأسها أشجار الصَّنَوْبر ؛ حتى إن الجدول نفسه ، المندفع بقوة بين الصخور الوَعْرة ، كان يبدو قاتماً ، ولم يكن له هذا المظهر السار البهيج الذى للمياه التى تنعكس عليها مباشرة زرقةُ السماء . وفى تلك اللحظة كانت الشمس قد أطفلت ، وامتد الظل مختفياً مريعاً بين الأوْعار الكابية . فسار الفارس قلقاً ، يخب بفرسه على حافة الجدول ، إذ كان يخشى تارة أن يدع للهاربة بتردده من الفرصة ما يجعلها توغل فى التقدم والبعد ، وتارة أخرى كان يخشى أن يجتازها دون أن يراها بتأثير شدة سرعته ، إن شاءت هى الاختفاء منه . ولكنه كان قد أمعن فى داخل الوادى كثيراً إلى درجة أن كان يُتصور أنه لا بد لاحق بالفتاة عما قليل ، إن كان يسير على الطريق السليم . ولكن قلبه كان يخفق بضربات تزداد شدة وجزعاً حين كان يتصور أن من الممكن أيضاً ألا يكون سائراً على السبيل القويم . فان لم يتهيأ له أن يجدها ، فما عسى برتلده الرقيقة أن تقضى ليلتها وسط الزعازع التى كانت تهدد

الوادى تهديداً يزداد كل حين عنفاً ؟ وأخيراً رأى من خلال الأغصان شيئاً أبيض يرف عند حافة الجبل . فظن أن هذا ثوب برتلده ، وانتحى هذه الناحية ؛ ولـكن جواده لم يشأ التقدم بعد أن كان يشب بعنف ؛ ولم يكن الفارس مستعداً لاضاعة الوقت ، فنزل من عليه ؛ فضلا عن أنه إذا كان قد مضى راكباً ، فان الأدغال سرعان ما تعوقه . فشد جواده اللاهث إلى شجرة دَرْدار ، وشق لنفسه بحذر طريقاً خلال الأدغال . وكانت الأغصان تضرب جبهته وصُدْغيه برطوبة أنداء المساء الباردة ؛ وكان هزيم الرعد يتجاوب بعيداً عبْرَ الجبال . و بدا كل شيء على مظهر من الغرابة جعل الفارس يفزع من هذا الشكل الأبيض الممتد على الأرض والذى اقترب هو منه شيئاً فشيئاً . ومع هذا كان فى وسعه أن يميز بوضوح أن هذا الشكل كان شكل امرأة نائمة أو مُغْمى عليها ، متدثرة برداء طويل أبيض كذلك الذى كانت برتلده اليوم ترتديه . فاقترب منها كثيراً ، وهز الأغصان فى جلبة ، وأسمع لسيفه قعقعة — ولـكنها لم تتحرك . فناداها : « برتلده ! » ، بخفة أولا ، و بصوت عال من بعد . ولـكنها لم تسمع . ولما هتف أخيراً بكل ما أوتى من قوة بالاسم المحبوب ، ردد الصدى الأخرس الصادرُ من مَعاجات الوادى : « برتلده ! » ، ولـكن الراقدة لم تنتبه . فانحنى عليها ؛ غير أن ظلمة الوادى وحَلَك الليل لم يسمحا بتمييز أية قسمة من قسمات وجهها . فلما بلغ به الشك القَلِقُ مبلغه ، انحنى عليها حتى الأرض . فرأى

حينئذ على ضوء برقٍ أضاء الوادى لحظة ، وجهاً بالقرب منه ، وجهاً متقطباً بطريقة مريعة ، صرخ فى الفارس بصوت أخرس : « هاتنى إحدى قُبُلاتك ، أيها الراعى الحبيب ! » فنزا هلدبرند فى الهواء وهو يصرخ مذعوراً ، والوجه يتبعه ويهمس له : « عد إلى مكانك ، فان الأرواح الخبيثة قد استيقظت . عد إلى دارك ! وإلا أخذتك ! » وأمتدّت أذرع بيض طوال كى تمسك به . فصاح الفارس وقد فاء إلى هُداه : « أيها الوغد كيلبورن ! أراهن أنك هو أيها العفريت ! هاك إذن قُبْلتَك ! » واستل سيفه مهتاجاً فى هذا الوجه ، ولكن هذا استحال إلى دخان ، ولم يدع الماءُ ، الذى انهمر فغمر الفارس ، شكاً لديه فى من هو الخصم الذى صارعه .

ثم قال الفارس لنفسه بصوت مرتفع : « إنه يريد أن يصرفنى عن برتلده بالارهاب . انه يتخيل أنى أخشى تهاويله البلهاء ، وأنى سأذر له هذه البنت المسكينة المعذبة بالقلق ، كى يستطيع أن يشبع بها شهوة انتقامه . ولكن اذا كان يعتقد أن فى وسعه أن يحظى بهذا منى ، فإنه واهم فيما زعم ، هذه الروح العنصرية الحمقاء . إن هذا الرجل العاجز يجهل ما يستطيع أن يفعله قلب الانسان حين يريد ، حين يريد حقاً بكل ما به من طاقة حيوية وقوة » . وأحس هلدبرند وهو يفوه بهذه الكلمات بما تنطوى عليه من حقيقة ، وبأنها أشاعت فى قلبه قوة جديدة . ويظهر أن الحظ قد شاء أيضاً أن يكون حليفه ، لأنه لم يكد

يلحق بجواده الذى خلفه مشدوداً ، حتى سمع بكل وضوح صوت برتلده منتحبا . ويجب ألا تكون غير بعيدة كثيراً ، لأنه تبين بكاءها خلال ضجيج الرعد والعاصفة المتزايد بسرعة هائلة فى الناحية التى كانت تنبعث منها هذه الزفرات ، ووجد الفتاة فى رعدة وقشعريرة ، وهى تحاول صعود المنحدر كيما تفر بطريقة أو بأخرى من ظلمة الوادى المريعة . فاعترض طريقها فاتحاً أمامها ذراعيه بحنان ؛ فلم تشعر الفتاة فى هذه اللحظة ، على الرغم من جسارة عزمها وعتوّه ، إلا بشىء واحد ، شعرت به أقوى شعور ، هو سعادتها لرؤية الصديق الحبيب إلى قلبها آتياً لانقاذها من هذه الوحدة المخيفة ، وسعادتها بالشعور بأن الحياة المشرقة فى القصر الأنيس الكريم تمد إليها يدها بحرارة . فتبعته دون أدنى اعتراض تقريباً ، ولكن فى حالة من الإعياء جعلتها تغتبط حين رأته يقودها إلى حيث يقف الجواد . وأسرع هو بحل وثاق جواده كى يركب على متنه الهاربة الجميلة ، ولكى يقوده من عنانه بحذر خلال ظلال الوادى غير المطمئنة .

ولكن الجواد كان فى حالة من الجنون الحقيقى بتأثير طلعة كيلبورن الحمقاء المثيرة للذهول ، حتى إن الفارس عانى كثيراً من الجهد والألم فى ركوبه ، من الدابة التى كانت تنحط وتشب ؛ حتى كان من المستحيل عليه أن يرفع إلى ظهره برتلده المرتعدة . فقررا العودة إلى القصر مترجلين . وسار الفارس ممسكا بعنان الدابة خلفه ، ومسنداً الفتاة المترنحة باليد الأخرى . ثم

استجمعت برتلده كل قواها ، كى تبلغ نهاية الوادى الرهيب فى أسرع وقت ممكن . ولكن الإعياء كان قد أرهقها ، فصارت أرجلها وكأنها من الرصاص ، وارتعدت فرائصها بقوة ، نتيجة المخاوف التى صبها عليها كيلبورن ، وهو يطاردها ؛ ونتيجة أيضاً للقلق التى كانت زمجرات العاصفة لا تزال تثيره فى نفسها ، هى وقصف الرعد المتجاوب خلال أدغال الجبل . وفى النهاية ، فرطت من الذراع التى كانت تسندها ، وارتمت على العشب منهوكة تقول : « دعنى راقدة هنا ، أيها السيد النبيل ؛ فإنى أكفّر عن الخطيئة التى حملنى جنونى وحماقتى على ارتكابها ؛ لقد قدر على أن أهلك هنا إعياءً وجزعاً » ، فصاح هلدبرند قائلا : « أبداً ، أيتها الصديقة الرقيقة ، لن أغادرك عوض ، لن أغادرك ! » وحاول فى غير طائل أن يكبح بيده جماح الجواد المرتعد المزبد باستمرار وبطريقة تزداد وحشية وعنفاً . وانتهى به الأمر أن اكتفى بابعاده بمسافة كافية عن الفتاة الراقدة منبطحة على الأرض ، كيلا يكون لديها فزع من هذه الناحية . ولكنه لم يكد يبتعد بضع خطوات مع الدابة المجنونة ، حتى راحت تناديه بصوت باكٍ حزين ، ظناً منها أنه أراد تركها فى هذه الوحدة المريعة ؛ فلم يدر حينئذ ماذا يفعل . وكان بوده لو استطاع أن يدع للحيوان الهائج كلّ حرية فى الشرود خلال الليل وتهدئة ثائرته بإنهاكه ، لولا أنه كان يخشى أن يطأ نفس الموضع الضيق الذى كانت برتلده راقدة فيه .

ووسط هذه الحيرة والارتباك الشديدين طن فى أذنه صوت عربة تنحدر خلفه ببطء على الطريق الحجرى ، فشاعت فى نفسه سلوى ما بعدها سلوى . فصاح مستغيثاً ؛ وتردد صوت إنسانى مجيباً ، وبالصبر مُهيباً ، وبالعون واعداً ؛ و بعد قليل رف خلال الأدغال جوادان أبيضان ، وإلى جوارهما قَباء السائق الأبيضُ ، ثم الغطاء الكبير ، المصنوع من نسيج أبيض ، المغطَّى للبضائع التى حملتها العربة . وعلى صيحة سيدهم : هَلَا ! وقف الجوادان المطيعان . أما هو فاقترب من الفارس ، وأعانه على كبح جماح جواده المزْبد، وقال : « أنا أعلم تمام العلم ماعند هذا الحيوان . فان خيولى لم تفعل غير هذا ، فى المرة الأولى التى اجتزت فيها هذه المنطقة . ذلك أنه يسكن هنا عفريت يلذ له أن يعبث مثل هذا العبث . ولكنى تعلمت عبارة موجزة ، فاذا سمحتَ بأن أهمسها فى أذن جوادك ، فسيسكُن روعُه وترفَضُّ عنه المخاوف ، ويعود آمناً ساكناً سكون حصانىّ الأبيضين اللذين تراهما هناك » . فصاح الفارس قَلِقاً : « جرب دواءك ، لكن بسرعة » . حينئذ جذب الحوذى إلى مستواه ذلك الحصانَ الجامح ، وهمس فى أذنه بكُلَيْمات . فسكن الجواد فى الحال ؛ ووقف مكبوح الجماح لا يتحرك ؛ ولم يبق من شاهد على ما كان عليه من هرج جنونى غير لُهاثه ، وغير البخار المتصاعد من أكفافه الدافئة . ولم يعد لهلدبرند من الفراغ ما يسمح له بالسؤال طويلا عن الوسيلة التى أحدثت هذا الأثر ، بل اتفق سريعاً مع الحوذى على أن يأخذ

برتلده على ظهر عربته التى كانت ، على حد قوله ، محمّلة بأكياس القطن السرىّ الوثير ، وأن يقودها هكذا حتى قصر رنجشتين . أما الفارس فقد اقترح أن يخفر عليهما وهو راكب جواده . ولكن هذا الحيوان قد بدا بالغ الاعياء إلى درجة لا يقوى معها على حمل سيده لمسافة طويلة ، لذا نصحه الحوذىُّ بالركوب مع برتلده فى العربة ، وفى الوسع ربط الجواد من الخلف . وأضاف إلى هذا قوله : « إن الطريق ينحدر ، فلن يكون فى ذلك أدنى ارهاق لفرسىً » . فقبل الفارس اقتراحه ، وصعد مع برتلده إلى أعلى العربة ، وتبعهما الجواد بصبر ، وسار الحوذى على الجانب ، أحوذياً ساهر العينين .

وفى سكون الليل الممعن فى الإظلام ، وحيث كانت ضربات الرعد لا تزال تهزم ، وإن كانت تزداد بعداً وتقل قدراً ، وفى نوع من الشعور بالراحة الذى بعثه فى نفسيهما أمانُ هذه الطريقة من طرق النقل وما فيها من راحة ، قام حِوَار هين رقيق بين هلدبرند وبين برتلده . فقد عاتبها بعبارات لطيفة على فرارها العنيد ، فاعتذرت عما فعلت بضراعة وتأثر ، وكان ينبعث من كل ما تقول ضوء كضوء المصباح الذى ينبه المحبّ ، خلال الليل والأسرار ، بأن المحبوبة لا تزال فى انتظاره . فأحس الفارس بقيمة هذه الكلمات أكثر مما انتبه إلى معانى الألفاظ ، وكان يجيب على قيمتها والروح التى تقال بها وحدهما . وفجأة صاح الحوذى بصوت أجش : « رفعاً لحوافركم يا بيضاواى ، رفعاً

لحوافركم ! انتبها ، يا بيضاواى ! تذكرا من أنتما ! وأطل الفارس خارج العربة ، فرأى الفرسين يسيران ، أو بالأحرى يسبحان وسط الماء المُزْبِد ؛ وأن عجلات العربة ترمى بالبرق وتجعجع كرحى الطاحون ، وأن الحوذى لما رأى طغيان الماء علا ظهر العربة . فصاح فى السائق : « أى نوع من الطرق هذا الطريق ؟ إنه يمر وسط السيل ؟ » . فأجاب السائق فى عاصفة من الضحك : « كلا ، أيها السيد ، بل بالعكس تماماً . إن السيل يمر وسط طريقك . أنظر ، وتأمل كيف فاض كل شىء » .

وفعلاً كان قاع الوادى يتماوج ويجلجل ، بعد أن اكتسحته فجأةً الأمواجُ المتكاثرة المتصاعدة. فصاح الفارس : « إنه هو كيلبورن ، جنى البحر الخبيث الوغد ، يريد أن يُغرقنا . أولا تعرف رُقْية أو فائدة ضده ، أيها الرفيق ؟ » فأجاب الحوذى : « أعرف واحدة ، ولكنى لا أستطيع ولا أريد استعمالها قبل أن تعرف من أنا » . فصاح الفارس قائلا : « أهذا وقت التعمية والإلغاز ؟ إن السيل يزداد ويعلو باستمرار ؛ فماذا يعنينى من أن أعرف من أنت » . فقال الحوذى : « وليس هذا بلا أهمية لك ، لأنى أنا كيلبورن نفسه » . قال هذا وتهانف مدبراً إلى داخل العربة وجهاً مقَطّبا . ولكن العربة لم تكن عربة بعد ، ولا الخيول البيض خيولا ؛ واختلط كل شىء ، وانحل على هيئة أمواج مزبدة صافرة ؛ والحوذى نفسه انتفخ وتلوّى على هيئة موجة هائلة ، أغرقت بالماء الجواد السائر فى غير طائل ،

ثم تضخّم من جديد ، متخطياً رءوس الاثنين ، هلدبرند وبرتلده ، اللذين كانا يسبحان ، وكانا بسبيل أن يغوصا نهائياً في أعماق هذا البرج السائل .

وفي هذه اللحظة ، رن صوت أندين البديع خلال الضجيج ، وخلص البدر من خلال الغمام ، وعلى ضوئه كانت أندين بادية على الأعالي المحيطة بالوادي . فصبت على الأمواج والسيول كلمات اللوم والتهديد . فجمجم البرج السائل الهائل وزمجر ، ولكنه تلاشى ؛ وجرت المياه هادئة رقيقة تحت أشعة القمر ؛ ورؤيت أندين وهي تنحدر من الأعالي كالحمامة البيضاء ، وتمسك بالفارس وبرتلده ، وتقودهما وإياها إلى فضلة من العشب الأخضر النضر على الشّعاف ، حيث نَشَّرت عنهما الاعياء والفزع واللغوب ، بأن سقتهم منعِشاً فاخراً ؛ ثم أعانت برتلده على امتطاء صهوة الرهوانة البيضاء التي حملتها هي . وعلى هذا النحو عاد الثلاثة إلى قصر رنجشتتن .

الفصل الخامس عشر

الرحلة إلى ڤينا

منذ هذا الحادث الأخير ، والحياة في القصر تسير في وداعة وسكون . واعترف الفارس شيئاً فشيئاً بإحسان زوجته السماوي ، الذي تبدى بكل جلاء في إسراعها إلى وادي السواد ، كما تحمي برتلده من كيلبورن ، هناك حيث تبدأ من جديد سطوة عمها

الرهيب . أما أندين نفسها فقد نعمت بالسلام والطمأنينه اللذين لا يعوزان أبداً قلباً يشعر يقيناً بأنه سار من السبيل على سوائه ؛ أضف إلى هذا أنها رأت فى بعث الحب والاجلال فى نفس زوجها من جديد ، أنواراً من الأمل والسرور . و برتلده من ناحيتها بدت عارفة للجميل ، خاضعة خجولا ذلولا ، دون أن تُدِلّ بهذا الموقف . فاذا رام أحد الزوجين أن يشرح لها بعض الشيء العلة فى إغلاق العَيْن أو مخاطرة وادى السواد ، سألته أن يعفيها من ذلك ، لأنها تشعر بكثير من الخجل والعار من ناحية العَيْن ، و بكثير من الفزع والرهبة من ناحية وادى السواد . فلم تعلم إذن شيئاً أكثر مما علمت ؛ وماذا يفيد أن تخبر بنبأ هذا ؟ فبدا وكأن السلام والسرور قد أناخا فى قصر رنجشتتن . وازداد الشعور بهذا شيئاً فشيئاً ، الشعور الصادق طبعاً ؛ وكان الظن أن الحياة لن تحمل بعد إلا جنىّ الأزهار وشهىّ الثمار .

وفى مجرى هذه الحياة الناعمة كان يأتى الشتاء ثم يمضى ، و يقبل الربيع فيعلن لهذه الكائنات السعيدة عن قدومه ببراعمه الناصعة الخضرة ، وسمائه الباهرة الزرقة ؛ وكان شعور هذا الربيع كشعورهم ، وشعورهم كشعوره . فأىّ عجب إذن فى أن توقظ قالقه وسنونوه فيهم أيضاً النزوع إلى الرحلات ! فبينا كانوا ذات يوم يهبطون مرتاضين نحو منابع الدانوب ، وصف لهم هلدبرند جلالة النهر النبيل وروعته ؛ وأراهم إياه وهو يجرى فى اتساع متصل خلال الأقاليم المباركة بالسماء ، ماراً بفينا ، هذه

الجوهرة التى تلمع على شطئانه بضوء باهر رفاف ؛ و يزداد قوة وسحراً كلما توغل فى السير . فتعجبت برتلده قائلة : « ما أجمل الانحدار فيه حتى قينا يوماً ما ! » ولكنها عادت فى الحال إلى ضراعتها وتواضعها اللذين أصبحا الآن قاعدة سلوكها ، فعلتها حمرة الخجل ولم تنبس بعد ببنت شفة . فأثر هذا فى نفس أندين كل التأثير ، ورغبة منها فى أن تسر خاطر صديقتها العزيزة ، رغبة صادقة ، قالت : « من ذا يمنعنا إذن من القيام بهذه الرحلة ؟ » فطارت برتلده سروراً ، وراحت المرأتان تتخيلان الهبوط فى الدانوب بمركب تحت أزهى الألوان وأجمل التصاوير . ووافقهما على ذا الرأى هلدبرندُ أيضاً مسروراً . ولكن شيئاً من القلق جعله يضطرب لحظة ؛ فمال على أندين وهمس فى أذنها : « ولكن كيلبورن يستعيد هناك سلطانه ؟ » ، فأجابت ضاحكة : « ليأتِ إذن ؛ أوَلن أكون حاضرة ؟ وهو لن يجرؤ أمامى على القيام بأى شىء من ألاعيبه الخبيثة » . وهكذا زالت العقبة الأخيرة . فاستعدوا لهذه الرحلة ، و بعد قليل بكروا نشيطين ، تشيع فى نفوسهم أسعدُ الأمانى .

ولكن لا تُدْهَشوا ، أيها الناس ، إذا كان ما سيحدث مخالفاً كل المخالفة لما ظنوه . فالقوة الخبيثة الغدّارة الواقفة بالمرصاد لإهلاكنا تهدهد الفرائس التى اختارتها بأنغام عذبة وأحلام وردية . وعلى العكس من ذلك نرى رسول السماء الذى يأتينا بالخلاص ، يقرع بابنا قرعاً عنيفاً رهيبا .

فإبّان الأيام الأولى لرحلتهم ، كانوا سعداء كما لم يكنه إنسان . فكل شيء يزداد بهجة وجمالا كلمـا هبطوا فى النهر ذى المجرى المتبذّخ التيّاه باستمرار . ولـكن ، وفى منطقة رائعة كل الروعة ، كان منظرها البهيج يبشر بأحر السرور ، بدأ كيلبورن العنيد يظهر سلطانه الذى بدأ من هنا ، دون ما تحفظ ولا هوادة . كان ذلك فى البدء مشاكسات بسيطة ، لأن أندين كانت كثيراً ما تُنْحى باللائمة على الأمواج الهائجة والريح المعاكسة ، فيخلى عنفُ العدو المكانَ سريعاً لإذعان ضارع . غير أن الهجمات كانت تتجدد ، وكانت تعنيفات أندين ضرورية من جديد ، إلى حد أن بهجة المسافرين الثلاثة اضطربت كل الاضطراب . أضف إلى هذا أن الملاّحين كانوا يتهامسون فيما بينهم فزعين ، ناظرين إلى هؤلاء العُملاء النبلاء نظرة تخلو من الثقة ، هؤلاء العملاء الذين هم وخدمهم أيضاً قد بدأوا يشعرون بأن ثمة سراً مُقْلِقاً ، ويطاردون سادتهم بنظرات غريبـة . فـكرر هلدبرند لنفسه مراراً فى أعماق قلبه : «هذه نتيجة الزواج غير الموفّق ، حين يبنى رجل بحورية بحر على هذا النحو الشاذ غير المألوف » . ولـكى يعتذر لنفسه ، كما يلذ لنا أن نفعل جميعاً أضاف : « ولـكنى لم أكن أعرف أنها جنية بحر . وإن من سوء حظى أن كل خطوة أخطوها تعوقها وتفسدها نزواتُ هذه القرابة الحمقـاء ، ولـكن الخطأ ليس خطأى » . وكانت هذه الخواطر مدعاة ترفيه له إلى حد ما ، ولـكنها كانت أيضاً مدعاة

سخط منه متزايد ، بل وعداء صريح ، بإزاء أندين . فها هو ذا يرمقها بنظرات كالحة ، كانت المرأة المسكينة أول من يعرف مدلولها ومداها . فلما أنهكها هذا السهم وذلك الجهد المتواصل فى كفاحها ضد مخاريق «كيلبورن» ، نامت عند المساء نوماً عميقاً ، يهدهدها بخفة وعذوبة زلوجُ السفينة الرشيق .

ولكنها لم تكد تغلق عينيها حتى خُيِّل إلى كل من فى السفينة أنه يرى ، من الناحية التى ينظر منها ، رأس إنسان مخيفة منبعثة من الموج ، لا فى وضع السابح ، ولكن بطريقة عمودية تماماً ، وكأنها مغروزة عمودياً على سطح الماء ، وإن كانت تسبح مع السفينة . فأراد كلٌّ أن يشير للآخر لينظر ما يخيفه ، ووجد كلٌّ على وجه الآخر نفس ما به من خوف ، متبوعٍ بحركات وإشارات تدل على وجود المِسْخ المترجح بين الضحك والتهديد ، تدل عليه فى اتجاهات متعارضة . فلما أرادوا جميعاً أن يقتنعوا ، وصاحوا : « أنظر هنا ، لا ، هناك ! » صارت الرؤى المخيفة عند أحدهما واضحة للجميع ، وغص النهر كله حول السفينة بالأشباح المريعة كل الروعة . فأيقظت الصرخة ، التى انبعثت حينئذ ، أندينَ من سباتها . فلما فتحت عينيها ، اختفت على ضوئها فيالق الأشباح الممسوخة . ولكن هلدبرند كان قد ثار على كل هذه التهاويل الدميمة الكريهة . وكان بسبيل صب أعنف اللعنات ، لولا أن قالت له أندين ، بنظرة ضارعة كل الضراعة ، ولهجة متوسلة ، وصوت خفيض هامس : « عمْرَكَ

الله ، زوجى وسيدى ، نحن هنا على الماء ، فلا تغضب منى الآن» .
فسكت الفارس وجلس ، وانطلق فى خواطر عميقة . فهمست أندين فى أذنه : « أو لم يكن من الأفضل ، يا عزيزى ، أن نعزف عن هذه الرحلة الحمقاء ، وأن نعود أدراجنا هادئين إلى قصر رنجشتتن ؟ » . ولكن هلدبرند دمدم بلهجة عدائية قائلا : « إذن لا بد لى من أن أكون سجين قصرى ، وألا أستطيع التنفس إلا إذا كانت العين مسدودة . بودى لو كانت قرابتك الحمقاء ... » ، وهنا وضعت أندين يدها الجميلة على فيه ، مغلقة إياه بضغطة رقيقة . فلم ينبس بعد بكلمة ، واعتصم بالسكون ، مجيلا فى خاطره كثيراً من الأشياء التى قالتها له من قبل أندين .

وكانت برتلده ، فى هذه الأثناء ، قد أسلمت نفسها لكل الخواطر الغامضة الغريبة . لقد كانت تعرف الكثير عن أصل أندين ، ولكنها لم تكن تعرف كلَّ شىء . فقد بقى كيلبورن الرهيب ، على الأخص ، سراً مُقْلِقاً غامضاً باستمرار ، إلى درجة أنها لم تسمع مطلقاً حتى باسمه . وفى أثناء تفكيرها فى هذه الأشياء الغريبة كلها حلت عقداً ذهبياً كان هلدبرند قد اشتراه لها من بائع متجوّل إبان إحدى رحلاته الأخيرة ، وراحت تلعب به على سطح الماء مسرورة ، وهى فيما يشبه الحُلْم ، بالانعكاسات البراقة التى كان يرسلها على المياه المضاءة بأنوار الأصيل . وفجأة انبثقت يد فِلْطاحة من أعماق الدنوب ، وأمسكت بالعِقد ، ثم غاصت به فى الأمواج . صرخت برتلده ؛

فتردد تهانُفٌ متهكِّم فى الجو ، صادراً من أعماق النهر . حينئذ لم يملك الفارسُ غضَبه بعد ، فوثب من مكانه ، وقذف الموج بآلاف اللعنات والسّباب ، ولعن كل هؤلاء الذين أرادوا التدخل فى أمور أسرته ومجرى حياته ، ثم استل سيفه من غمده ، وتحداهم جناً وجنيات ، أن يقفوا أمام حُسامه . وكانت برتلده تبكى فى هذه الأثناء على الجوهرة المفقودة التى كانت لديها عزيزة جداً ، وكانت دموعها زيتاً يُصب على غضب الفارس . أما أندين فكانت تحمل يدهافوق حافة السفينة ، يدها الغائصة فى الأمواج. وكانت تدمدم باستمرار بكلمات هامسة ، غير متوقفة عن همسها المستسرّ إلا لتقول لزوجها متوسلة : « يا حبيب قلبى ، لاتعنفّنى هنا ، عنّف من تشاء ، ولكن ، هنا ، لا تعنفنى أنا . وأنت عارف جيداً ! » . وهو بالفعل قد تجنب حتى الآن كل كلمة موجهة ضدها ، على الرغم من شدة غضبه . وحينئذ ، و بيدها المبتلة التى وضعتها فى الماء ، قدمت عِقْداً فاخراً جداً من المرْجان ذا بَرَقان رائع ، إلى درجة أن عيونهم جميعاً قد أُغْشى عليها ، ثم قالت وهى تقدمه إلى برتلده برقة وظَرف : « خذى ، فهذا ما حصلت عليه ، عوضاً عن الجوهرة التى تبكينها ، فأرْقِئى الآن دَمْعَكِ ، أيتها الطفلة المسكينة » . ولكن الفارس وثب بينهما ، وانتزع العقد الفريد من أيدى أندين ، وقذف به فى النهر ، وهو يصيح مغضباً : « ألا زلتِ إذن على اتصال بهم ؟ عودى إليهم أنت وهداياكِ ، بحق الشيطان وساحراته! عودى إليهم ودعينا

فى سلام ، نحن بنى الانسان ، أيتها الدجّالة الساحرة ! » . و بعين ثابتة ، ولكنها تفيض بالدمع ، نظرت إليه أندين المسكينة ، ويدها دائماً مبسوطة بنفس الحركة التى قدمت بها إلى برتلده هديتها الثمينة . ثم راحت تزفر بكل قلبها ، كطفل عذب ، عوقب ظلماً عقاباً قاسياً لا يستحقه اطلاقاً . وأخيراً قالت بصوت كامد : « وآسفاه يا صديقى العزيز ، وداعاً ! لا أريد أن يصيبوك بأى سوء . ولكن ابق مخلصاً كيما يكون فى وسعى حمايتك منهم . أما أنا ، فلا مناص لى من الرحيل عن هذه الحياة الشابة التى حييناها سوياً ! يا للشقاء ! يا للشقاء ! ماذا فعلت ؟ يا للشقاء ، يا للشقاء ! » .

ثم اختفت من فوق حافة السفينة . أقذفت بنفسها فى الموج ؟ أزلقت اليه ؟ لم يدر أحد : هذا وذاك ، ولا هذا ولا ذاك . ولكنها سرعان ما اختفت نهائياً غائصة فى أعماق الدانوب . ولم يكن ثمة غير مويجات تدمدم وتزفر حول السفينة ، ويكاد المرء يسمعها تقول : « أوه ، يا للشقاء ، يا للتعاسة ! آه ! ابق مخلصاً ! أوه يا للتعاسة ! » .

وكان هلدبرند منبطحاً على ظهر السفينة ، وهو يبكى بدموع حارة غزار ؛ وسرعان ما غطى المسكين إغماء عميق شمله بقناعه الرقيق المسكّن .

الفصل السادس عشر

ما حدث بعـــــدُ لهلدبرند

هل لنا أن نقول : ويا أسفاه ، أو نقول : ويا لحسن الحظ ، إذا كانت أحزاننا ليست دائمة ؟ وأنا أعنى أحزاننا الحقيقية ، أحزاننا العميقة ، أحزاننا التى تنبع مما تنبع منه الحياة ، والتى نكون فيها والفقيدَ المحبوبَ شيئاً واحداً ، إلى درجة أنه لا يبدو لنا قد فُقِد ، وأننا نريد أن نكرس لصورته ، طوالَ حياتنا ، عبادة دينية حقاً ، حتى اللحظة التى يغيبنا فيها عن الدنيا ما غيبه عنا . أجل ، إن من الكائنات من فيه من الطيبة ما يجعلهم يظلُّون فعلاً كهنة مخلصين لمثل هذه العبادة . ولكن هذه العبادة نفسها ليست بعدُ هى الأحزان الأولى ، الأحزان الحقيقية . فثمة صور أخرى غريبة ، تختلط بها وتنضاف اليها . إنا نعانى فى ألمنا وحدادنا نفسه تجربةَ فناءِ كلِّ ما فى هذا العالم من كائنات ، وعلىَّ إذن أن أختم قائلا : إن أحزاننا ليست دائمة ، وياأسفاه .

وفارس رنجشتتن قد عانى هذه التجربة كذلك . أكان ذلك لخلاصه ونجاته ؟ ستأتيك تتمةُ هذه القصة بالنبأ اليقين . فهو لم يكن فى وسعه إلا أن يبكى مر البكاء ، وباستمرار ، كما بكت من قبل أندين العزيزة ، حين انتزع من بين يديها الجوهرةَ البراقة التى أرادت أن ترد بها كل شىء حسناً جميلا . وحينئذ مد يده كما فعلَتْ ، وأسبل العبرات من جديد كما فعلت على

السواء ، وكان يناغى فى قلبه الأملَ بأن ينتهى هو أيضاً بأن يَغْرق فى دموعه . أوَ لم يحدث لـكثير منا نحن ، وهم فى أحضان حزن عظيم ، أن تمر بخاطرهم مثلُ هذه الفكرة ، مانحةً إياهم بعضاً من السرور الأليم ؟ وشاركته برتلده البكاء ، وعاشا طويلا سوياً فى قصر رنجشتتن ، آمِنَىْ السرب ، وهما يتعبدان بذكرى أندين ، فى نسيان شبه تام ٍ لهواهم القديم . ثم إن أندين الطيبة كانت تأتى ، فى تلك الأثناء ، زائرة هلدبرند فى أحلامه ؛ تأتى فتلاطفه وتناغيه ، ثم تعود أدراجها ، باكية فى صمت ، حتى إنه لم يكن ليعرف غالباً ، حين يستيقظ ، لماذا تبللت خدوده ، وما إذا كانت هذه دموعَه هو أو دموعها .

ولـكن رؤية أمثال هذه الأحلام نقصت شيئاً فشيئاً على مر الزمان ؛ فسكنت أحزانُ الفارس . ومع هذا لم يكن ليجد فى الحياة لذةً غير استمرار التفكير صامتاً فى أندين والتحدث عنها ، لولا أن الصياد الشيخ ظهر فى القصر على غير انتظار ، وطلب بإلحاح ٍ جدّى برتلده ، ابنته . فقد وصلت اليه أنباء اختفاء أندين ، فلم يشأ السماح لبرتلده بالإقامة فى القصر بعدُ ، حيث لا زوجة إلى جوار الفارس . وقال : « لست أسأل الآن عما إذا كانت ابنتى تحبنى أو لا تحبنى ؛ ولـكن المسألة مسألة شرف وكرامة ، وحيث تكون الكلمة للشرف ، يجب أن يكون الشرف وحده صاحب الحق فى الكلام »[1] .

---

(١) قسمة من قسمات الفروسية .

فكان من شأن نية الصياد الشيخ ، وخوف العزلة التى كانت تهدد بتطويق الفارس فى كل أبهاء القصر وأروقته إذا ما رحلت عنه برتلده ، كان من شأن هذا كله أن يبعث ما أنامه الحزنُ لفقدان أندين فى غمرة النسيان : أعنى ميل هلدبرند إلى برتلده الجميلة . ولكن كان لدى الصياد الكثير من الاعتراضات على مشروع هذا الزواج . فأن الشيخ قد أحب أندين كل الحب ، وكان يرى أنه لا يكاد يكون من المعروف يقيناً أن الفقيدة العزيزة قد ماتت حقاً . ولكن إذا كانت جثتها ترقد حقاً جامدة باردة فى أعماق الدانوب ، أو إذا كانت الأمواج قد قذفت بها إلى المحيط العظيم ، فان لبرتلده نصيبها من المسئولية عن هذا الموت ، وليس من اللائق إذن أن تحل محل الزوجة المسكينة التى أُبعِدت . ومع هذا ، فقد كان الصياد يحب الفارس كل الحب ، وإلى هذا انضافت توسلات ابنته ، التى أصبحت وديعة مطواعة ، إلى جانب ماذرفته على أندين من دموع . ولا بد أن يكون قد أعطى أخيراً موافقته ، لأنه ظل بالقصر دون أن يتقدم بعد باعتراض ؛ وأُرْسِل فى طلب الأب هَيِلْمَن الذى بارك زواج أندين بهلدبرند ، فى أيام هنيئة خالية ، لكى يحتفل بالزواج الثانى للفارس .

ولكن القسيس الورع لم يكد يقرأ رسالة سيد رنجشتتن عاجلا ، حتى اتخذ طريقه نحو القصر بأسرع مما فعل الرسول فى طريقه إليه . وحين يعوزه النفَس فى جريه السريع ، أو حين

كان اللغوب يرهق أعضاءه الهرمة ، كان يردد لنفسه : « لعلى أصل فى الوقت الملائم لكى أمنع الشر ؛ فلا تَهْوِ إذن قبل أن تبلغ غرضك ، أيها الجسم المتيبِّس! » ثم ينهض بقوة متجددة ويسير ، يسير قُدُماً دون راحة ولا مهاونة ، إلى أن أتى ذات مساء ، فى ساعة متأخرة ، فدخل أخيراً بهو قصر رنجشتتن .

وتحت ظلال الأشجار كان الخِطْبان جالسين متعانقين ، وإلى جوارهما الصياد الشيخ مطرقاً يفكر . فما أن رأوا الأب هيلمن حتى نهضوا خِفَافاً ، والتفوا حوله مُرَحِّبين بضيفهم . ولكنه لم يشأ الوقوف طويلا عند التحيات ، بل أقبل يريد أن ينتحى بالفارس ناحية فى داخل القصر . غير أن هلدبرند ، وقد دُهش ، تردد فى إطاعة الأشارات التى أرسلها القسيس فى جِدٍ وحزم . فقال هذا حينذاك : « ولماذا أضيع وقتى رغبة فى التحدث إليك خاصة ، يا سيد رنجشتتن ؟ فما أريد أن أقوله يعنى برتلده والصياد كما يعنيك أنت على السواء ؛ وما لا بد للمرء من سماعه عاجلا أو آجلا ، خير له أن يسمعه فى أقرب وقت مستطاع . أواثق أنت ، يا سيد رنجشتتن ، من أن زوجتك الأولى قد ماتت حقاً ؟ أما أنا فلست واثقاً مطلقاً إلى هذا الحد . إنى لا أريد العود إلى ما عسى أن يكون فى مصيرها من غرابة وعجب ؛ فانى لا أعلم شيئاً مؤكداً فى هذا الصدد . أما أنها كانت إمرأة ورعة تقية أمينة مخلصة إلى أبعد حد ، فهذا ما لا يساورنى فيه أدنى شك . وها هى ذى تزورنى فى المنام منذ

خمس عشرة ليلة ، واقفة على أكناف سريرى ، لاوية بجزع يديها الرقيقتين ، متنهدة تقول باستمرار : « امنعه ، أيها الأب العزيز ، فإنى لا زلت حية ! آه ، انقذ جسدى ! آه ، انقذ رُوحى ! » فلم أفهم ماذا تعنى هذه الرؤيا الليلية . وإذا برسولك ؛ وإذا بى أسرع ، لا من أجل تزويجكما ، ولكن من أجل أن أفصل بين ما لا يجب أن يتحد . انصرف عنها ، هلدبرند ! انصرفى عنه ، برتلده ! إنه لا يزال فى حوزة أخرى ؛ أفلا ترين على وجهه الشاحب ، أسفه الحزين على زوجته المفقودة ؟ ليست هذه سيماء خِطْب ؛ وإن الروح القدس لتقول لى بأنه حتى لو لم ينصرف عنك ، فإنه لن يكون مطلقاً لك » .

فشعر الثلاثة فى أعماق قلوبهم بأن الأب هيلمن قد قال حقاً وصدقا . ولكنهم لم يشاءوا تصديقه ، مع ذلك . بل إن الصياد الشيخ نفسه كان قد راب فى أمره وضُرِب على قلبه بالأسداد ، إلى درجة أنه تصور أن الأمور لا يمكن أن تأخذمجرى آخر غير الذى فكروا فيه فى حوارهم طيلة الأيام السالفة . ولذا ثاروا جميعاً بعنف وضجيج غامض على إنذارات القسيس ، إلى أن غادر هذا القصرَ أخيراً ، وهو يُنْغِض رأسه حزيناً آسفاً ، دون أن يقبل ، حتى لمدة هذه الليلة وحدها ، ما تقدموا به اليه من ضيافة ، بل ودون أن يرضى بتناول شيء من المطعومات التى أمروا باحضارها كيما يُهْجِع غَرَثَه . وأقنع هلدبرند نفسه بأن القسيس ممرور مألوس ؛ وما إن بزغ الفجر حتى أرسل إلى أقرب

دير فى طلب قسيس آخر ، وعد ، دون أدنى تحفظ ، بالاحتفال بمرسم الزواج بعد قليل من الأيام .

الفصل السابع عشر

حُلْم الفارس

كان ذلك فى الساعة المترجّحة بين الليل و بزوغ النهار ، حين رقد الفارس على فراشه ، نصف يقظان ونصف نائم . فلما كان على بَتات أن يستغرق فى النوم ، خيل إليه أن ثمة شيئاً رهيباً ماثلا أمامه جعله يرتد مذعوراً ، لأن النوم كان مضطرباً بالأشباح . ولكن حين كان يعزم بجد على اليقظة ، كان يشعر وكأن أجنحة بَلَشون ترفرف حواليه ، على إيقاع للموج رقيق جذاب . ثم يعود من جديد إلى تلك الحالة الغامضة ، تناغى نفسه روائع الأوهام . وأخيراً غفا تمام الاغفاء ، إذ خُيِّل اليه أن حفيف البلشون يرتفع به على أجنحة حقيقية ، ويحمله بعيداً ، وراء الأرضين والبحار ، مشيّعاً دائماً بأعذب الألحان ، وأرقّ النشيد .

« نشيد البلشون ! نشيد البلشون ! » هكذا كان لا يسعه إلا أن يقول مردداً لنفسه ، « إن هذا معناه الموت من غير شك » . ولكن هذا كان يعنى أيضاً شيئاً آخر . إذ شعر فجأة بأنه يرنق فوق البحر الأبيض المتوسط . وكان بلشون يغنى فى أذنه بصوت رنان قائلا إن هذا هو البحر المتوسط . ولما غاص ببصره فى الأمواج ، صارت هذه من البلور الناصع ، مما هيأ له أن ينظر

حتى الأعماق . ولشد ما كان سروره حينما رأى أندين جالسة تحت قباب البلّور الشفافة . أجل ، إنها كانت تبكى كثيراً ، وكانت بادية الأشجان أكثر جداً مما كانت فى الأيام السعيدة التى عاشا فيها سوياً بقصر رنجشتتن ، وبخاصة فى البداية ، بل وأيضاً فى النهاية ، عشية رحلتهم المشئومة فى نهر الدانوب . فلم يملك الفارس نفسه من تذكر ذلك الماضى برقة وحنان وتأثر فى النفس عميق . ولكن لم يبدُ أن أندين قد أبصرته . غير أن كيلبورن كان قد اقترب منها ، وراح ينتهرها على تذراف هذى الدموع . فقالت : « إذا كنت أسكن هنا وإياك ، تحت المياه ، فإنى قد عدت اليها ولى روح ظفرت بها هناك فى أعلى ؛ ولى الحق فى البكاء ، وإن كنتَ لا تستطيع أن تفهم ما معنى مثل هـذه الدموع . إنها هى الأخرى نعمة وسعادة ، كما أن كل شىء سعادة ونعمة لمن تسكن فى داخله نفس أمينة مخلصة » . فأنغض رأسه شاكًّا ؛ وبعد لحظـة من التفكير ، قال : « ومع ذلك فأنتِ ، يا ابنة أخى ، خاضعة لشريعتنا ، شريعة الأرواح العنصرية ؛ وعليك أن تحاكميه وتجعليه يموت ، إذا تزوج من جديد وكان لك خائناً غير أمين » . فقالت أندين : « إنه لا يزال إلى الآن أيِّماً يحبنى بقلب كليم » . فتهانف كيلبورن قائلاً فى تهكم : « ولـكنه فى الآن نفسه خطب أيضاً ، وبعد قليل ، كاسترين ، سيمنح البركة ، وعليك حينئذ أن تصعدى كى تميتى هذا المتزوج باثنتين » . فقالت أندين باسمة : « لن أستطيع ذلك . أوَلم أغلق

العَيْن ، على نفسى وعلى بنى جنسى ؟ » فقال كيلبورن مجيباً : « ولـكن اذا ابتعد عن قصره ، أو إذا أمر بفتح العين من جديد ؟ لأنه قد نسى من غـير شك كل تنبيهاتك » . فقالت أندين ، وهى تبسم دائماً من خلال الدموع ، : « ولهذا بعينه يحلّق بروحه فى هذه اللحظة نفسها فوق البحر المتوسط ، ويحلم بالحوار الذى نحن فيه الآن ، وهو حوار يجب أن ينبهه كى يأخذ للأمر حِذْره. لقد رتبت هكذا كل شىء عن قصد » . فرفع كيلبورن عيوناً غاضبة مهتاجة إلى ناحية الفارس ، وهـدده ، وضرب الأرض بقدميه ، ثم انطلق كالسهم ، غائصاً فى الأمواج ؛ و بدا كأن الغضب قد نفخ فيه فجعله فى حجم الحوت . ثم عاد البلشون يغنى ، ويضرب الهواء بجناحيه ، و يطير ؛ وخُيِّل إلى الفارس أنه يحلق فوق جبال الألب والأنهار ، وأنه دخل قصر رنجشتتن وهو يحلق باستمرار ، ثم استيقظ من فراشه .

استيقظ على فراشه حقاً . وفى هـذه اللحظة دخل حامل السلاح مخدعه ، وأنبأه أن الأب هَيْلمَن لا يزال فى المنطقة ، إذ رآه عشية الأمس ، فى وقت متأخر من المساء ، رآه فى داخل الغابة ، فى كوخ صنعه لنفسه بإمالة أغصان أشجار بطريقة تضمها بعضاً إلى بعض ، وافترش العشب وصغار الأفنان . فلما سألته : ماذا يعمّل هنا ، ما دام لم يشأ تقديس الزواج ؟ أجاب : « هناك احتفالات أخرى غـير الاحتفال بالزواج ، وأنا لم آت لهذا الاحتفال ، حقاً ، ولـكن من أجل احتفال آخر . يجب أن نتوقع

كل شيء . وفضلا عن هذا ، فان الفاصل بين مراسم الزواج ومراسم الدفن ليس كبيراً ؛ ومن لا يُعمى عينه عن قصد ، يراه جيداً » .

فأثارت كلمات الأب هيلمن ، كما أثار حلمه هو ، أنواعاً من الهواجس ، وألواناً من الخواطر في نفس الفارس ، ولكن من العسير على الانسان أن يتنازل عن مشروع رآه قد تحقق بالفعل ؛ وبقيت الأمور إذن على حيث ما اتُّفق عليه .

الفصل الثامن عشر

كيف احتفل الفارس هلدبرند بزواجه

إذا كان ولابد من أن أقص عليك كيف احتُفِلَ بالزواج في قصر رنجشتتن ، فسيخيل إليك أنك بإزاء مواكب غريبة من المناظر البراقة السارّة ، تعرض نفسها خلف ستار أسود ، بدت الروعة والأبّهة من خلال ظلمته أشبه بالسخرية والتهكم على بطلان المباهج الدنيوية ، منها باللهو والسرور . ولم يكن ذلك لأن العرس والمدعوين قد أزعجتهم رؤيا أو أشباح ! فنحن نعرف أن القصر قد عاد حراماً على أرواح المياه المتوعدة ، تحميه تعويذة سحرية ضد كل تهاويلهم . إنما بدا للفارس والصياد ولكل الحاضرين أن الشخص الرئيسي لايزال يعوز هذا الحفل ، وأن هذا الشخص الرئيسي لا بد أن يكون أندين العزيزة المحبوبة . ففي كل مرة يفتح فيها الباب ، كانت العيون تتجه كلها إلى هذه الناحية ، على

غير شعور منها ولا إرادة ؛ وما يكادون يرون أن القادم لم يكن سوى سيد الخدم قد أقبل حاملاً صحافاً جديدة ، أو الساقى ومعه رِفدٌ من أنفس الصهباء ، كان ينظر كل منهم أمامه حزيناً مكتئباً، والشرر الذى كانت تقدح به بين الحين والحين نادرةٌ سارةٌ أو سورةُ ابتهاج ، سرعان ما كان ينطفىء فى هذا الجو الرطب من الذكريات الأليمة . وكانت العروس من بين الحاضرين أقلهم اهتماماً ، ولذا كانت أشدهم حبوراً ؛ ولكن كان يبدو لها غريباً أن تكون جالسة هكذا فى مقام الشرف ، مزينة بتاج العروس الأخضر وفستانٍ مطرّز بالذهب ، بينا أندين ترقد جثة هامدة باردة ، فى أعماق الدانوب ، أو محمولة على الموج إلى المحيط العظيم . لأنها منذ أن سمعت هذه الكلمات من فم أبيها ، كانت ترن فى آذانها باستمرار ، ولم تشأ اليوم خصوصاً أن تنصرف عنها.

وما سجا الليل حتى انفض المدعوون . ولكنهم لم يكونوا مدفوعين إلى الذهاب بسبب قلقٍ من الزوج مؤمّل عاشق ، كما هى الحال عادة ليلة الزفاف ؛ و إنما كانوا مدفوعين إلى مغادرة المكان ، على نحو غامض ، بواسطة وساوس حزينة تؤذن بأسقام وأشجان . وانصرفت برتلده مع وصيفاتها ، كما انصرف الفارس مع حاشيته ، كى يخلع كلّ ثيابه : وفى مثل هذا الاحتفال الحزين ، لم يكن ثمة مجال لموكب من الفتيات والفتيان يزفون العِرْسين فى مرح وسرور .

ورغبت برتلده فى الابتهاج ، فنشرت أمامها زينة فاخرة

أهداها اليها هلدبرند ، وثياباً نفيسة وخُمُراً دقيقة ، كى تختار من بينها ما يبدو لها أكثرها جمالاً و بهجة للزينة فى صبيحة الغد .

وبهذه المناسبة لذ لوصيفاتها أن يَزِدْن من تحيات الإطراء والملق لسيدتهن الشابة ، ولم يَفُتْهن أن يثنين أحرّ الثناء على جمال العروس . وأمعنّ فى هذا السبيل حتى إن برتلده زفرت أخيراً ، وهى تُرمق بنظرها المرآة ، وقالت : « آه ، ولكن ! أو لا ترون هذا النمش على صفحة الجيد ؟ » فنظرن ووجدن حقاً ما قالته سيدتهن الجميلة ، ولكنهن نعتنه بأنه حَبُّ الجمال ، وظل ضئيل يبرز نصاعة البَشَرة الرقيقة ورونقها . فأغضت برتلده رأسها ، وقالت : إن هذا مع ذلك شائبة . وتنهدت قائلة : « وفى وسعى أن أتخلص منها . ولكن عين القصر قد أُغلِقت ، ومنها كنت أمتح الماء الثمين الذى كنت أطهّر به جسمى . آه لو كان لدى منه اليوم ولو ملء زجاجة ! — « أهذا كل ما تريدين ؟ » هكذا قالت ضاحكة خادمة شموع ما لبثت أن مرقت من الغرفة — فتساءلت برتلده قائلة بدهشة راضية : « ولكنها لن تبلغ من الجنون قدراً يجعلها تدع حجر العين يرفع بعد هذا المساء ؟ »

ولكن كان يسمع حينئذ صوت رجال يمرون فى البهو ، ومن النافذة كانت الخادمة تُرى مُهرَعة تقودهم إلى العين وهم يحملون على أكتافهم روافع وأدوات أخرى ؛ فقالت برتلده باسمة : « هذه حقاً رغبتى ، ولكن بشرط ألا يطول أمر ذلك ! » .

ثم ألقت بنظرها فى بهو القصر ، المضاء بالقمر ، ترى ما يفعلون .

يغزوها شعور سعيد بأن إشارة واحدة منها تكفى الآن للظفر بما تألمت من قبل لرفضه .

بذل الرجال جهدهم فى رفع الحجر الكبير ، وكان منهم من يزفر أحياناً ، وهو يتذكر أنهم يهدمون الآن ما فعلته سيدتهم القديمة المحبوبة — ولكن العمل تقدم بيسر أكثر مما كان يُتوقع . وكأن ثمة قوة من داخل العين تساعد فى رفع الحجر . فتهامس العمال بعضهم لبعض : « أو لن يقال إن الماء الذى فى داخلها قد استحال إلى نافورة ؟ » وارتفع الحجر قليلاً قليلا ، ثم تدحرج بطيئاً ، وبصوت أخرس ، على البلاط ، دون مشاركة فى هذا تقريباً من جانب العمال . ومن فوهة العين انبثق بجلال شىء شبيه بعمود الماء ؛ فظنوا أول الأمر أنها نافورة حقاً ؛ ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الشكل المنبثق كان وجه امرأة ، شاحبة ، عليها قناع أبيض ؛ تبكى مُرَّ البكاء ، قد عصبت يديها المرتعدتين فوق رأسها ، وسارت إلى درجات القصر ، بخطوات بطيئة متزنة . فانصرف العمال والخدم عن العين ، هاربين فى كل اتجاه متدافعين . ومن النافذة كانت العروس تطل وسط وصيفاتها شاحبةً عقَلَ الرعبُ يديها ، ومن الفزع استحجرت . فلما مر الشبح تحت الطُّنُف ، رفع عينيه من هذه الناحية متنهداً ، وخُيِّل إلى برتلده أنها قد تعرَّفت من تحت النقاب وجهَ أندين الشاحب . ولكن الشاكية الباكية مرَّت بخطوات ثقيلة مقهورة مترددة ، وكأنها محكوم عليه بالاعدام يسير إلى المقصلة .

فصاحت برتلده مهيبة بهم أن يدعُنّ الفارس . ولـكن لم تجرؤ واحدة من الوصيفات على السير خطوة ، والعروس نفسها لم تعد تنطق بحرف وكأنها فزعة من صوت نفسها .

و بينما ظل هؤلاء النسوة عند النافذة مذعورات، مستحجرات كالدُّمى ، دخلت الطارقة الغريبـــةُ القصر ، وصعدت السلم واجتازت القاعة المعروفين لها تمام المعرفة ، صامتة دائماً وسط فيض من الدموع . آه ! كم تغير كل شيء منذ أن كانت قبلُ تسكن هذه الأمكنة !

أما الفارس فقد خلَّف حاشيته ، وظل واقفاً أمام مرآة كبيرة ، عارياً نصف عرى ، غريقاً فى حزين من الخواطر والأفكار ، والشمعة إلى جواره تحترق دون أن تنشر ضياء . وهاهى ذى ضربة ترن على الباب ، ببنان خفيف ، خفيف . أندين ، أجل ، أندين كانت تقرع الباب هكذا ، حين كانت تريد مداعبته . فقال فى نفسه : « كل هذا ليس إلا نزوة من نزوات خيال جامح مضطرب . وعلىَّ الآن أن أذهب كى آخذ مكانى فى فراش الزوجية » . « أجل ، يجب ذلك ، ولـكن فى فراش زوجية بارد متحجر » ، هكذا سمع صوتاً مبللا بالعبرات يأتى من خلف الباب . وحينئذ رأى فى المرآة أن الباب يفتح ، يفتح ببطء والطارقة البيضاء تدخل ، وتُحكم الاغلاق بالرتاج ، وقالت بصوت خفيض : « إنهم فتحوا العيْن، وهأنذا الآن ماثلة أمامك ولا بد أن تموت الآن » . فشعر فى قلبه الذى توقف

منذ برهة عن الخفقان أن لا مناص من ذلك ، ولكنه غَطَّى بيده عينيه وقال : « لا تجعليني أموت حائر اللب بواسطة رؤية رهيبة . فاذا كان وجهك خلف القناع مخيفاً ، فلا تخلعيه ؛ ونفذى الحكم القاضى علىَّ بالأعدام دون أن أراك » . فأجاب شبحها العائد : « آه ، أولا تريد أن ترانى للمرة الأخيرة ! إنى لازلت جميلة ، كما كنت حين بنيت بى ، هناك على شاطىء البحيرة » . فتنهد هلدبرند قائلا : « آه ، ليكن كما تشتهين . وبودى لو استطعت أن أموت بقبلة منك ! » فأجابت : « بكل ارتياح ، يا حبيبى العزيز » ؛ ولوت لثامها ، وبدا وجهها العذب باسما ، جميلا حتى القداسة . فانحنى نحوها الفارس وهو يرتعد من الحب ويقشعر من قرب الموت . ثم قبلت وجهه بقبلة سماوية ، ولم تفصل شفتيها بعد عنه ، بل ضمته بقوة إلى صدرها ، وبكت ، وكأنها تود أن تجرى روحها مع عبراتها . ونفذت دموعها إلى أعين الفارس ، وانتشر فيضها على صدره ، مشيعاً فيه ألماً عذباً عزيزاً ، إلى أن أعوزه النَّفَس ، وسقط من بين ذراعى أندين الجميلتين ، سقط جثة هامدة لا حراك بها على حشايا سرير الراحة .

« لقد قتلته بدموعى ! » هكذا قالت أندين لبعض الخدم الذين كانوا فى طريقها عند الدهليز ، وخرجت مجتازة بهؤلاء المدعوين ، واتخذت سبيلها إلى العين بخطوات بطاء .

الفصل التاسع عشر

كيف دفن الفارس هلدبرند

لم تكد أنباء وفاة سيد رنجشتتن تذاع فى الأقليم حتى أسرع هيلمن إلى القصر، ووصل إليه فى اللحظة عينها التى خرج فيها الراهب الذى قدس زواج العرْسين البائسين، خرج من الأبواب هارباً يطارده الفزع والخوف. «حسناً، هكذا كان يجيب هيلمن من كانوا يقصون عليه الحادث؛ حسناً، والآن فإن مهمتى قد بدأت، وهى مهمة لا أحتاج فى إنفاذها إلى عون أحد». ثم راح يعزى المرأة الفتيـة التى أصبحت أيِّماً على الرغم من قلة جدوى كلماته بالنسبة إلى مثل هذه النفس الطروب الدنيوية. أما الصياد الشيخ، ولو أنه كان كاسف البال، لهيف القلب حتى الأعماق، فقد تحمل ضربة القدر بذَرْع واسع، تلك الضربة التى أصابت ابنته وصهره، وبينا كانت برتلده لا تتوانى عن اعتبار أندين قاتلة وساحرة، كان الشيخ يردد برِباطة جأش وهدوء: «لم يكن فى الامكان أن يكون غيرُ ما كان. إنى لا أرى فى هذا غير يد العدالة الإلهية؛ ولا شك أن أحداً لم يتألم لموت هلدبرند أكثر مما تألمت تلك التى كان عليها أن تصيبه به، ألا وهى أندين، أندين المهجورة المسكينة!» وساعد فى تنظيم الاحتفال بالدفن كما يليق بمقام الميت. فيجب أن يدفن هذا فى مقبرة القرية حيث تقوم فيها قبور جميع أسلافه وأجداده، وهى

مقبرة منحها هو ، كما فعل آباؤه من قبل ، الكثير من الاعفاءات والهبات . وكانت درعه وبَيْضته قد وضعتا فعلا على نعشه ، كى توضع معه فى لحده ، لأن السيد هلدبرند فون رنجشتتن مات آخر أرومته .

وسار الموكب الحزين ، مردداً أناشيد الحداد لسجوّ السماء الزرقاء ؛ وعلى رأسه مشى هيلمن ، حاملا صليباً ضخماً ؛ وفى إثره مشت برتلده ، متئدة إلى ذراع أبيها الشيخ . وفجأة ، وفى وسط المنتحبات المدّثرات بالسواد اللائى كن يَخْفُقن بالأيم ، رؤى وجه أبيض بياض الثلج ، كان يرفع إلى السماء يديه ويعصبها ، زافراً أحد الزفرات . فتراجع الذين سارت إلى جوارهم وقد أخذهم فزع مستور ، وابتعدوا عنها ناقلين بهذا خوفا أكبر إلى من أصبحت البيضاء الغريبة تسير بعد الى جوارهم ، مما كاد أن يؤدى الى فوضى واضطراب فى سير الموكب الحزين . فتجاسر بعض المحاربين على مخاطبتها ، وأرادوا منعها من السير فى الموكب ، ولكن بدا لهم وكأنها مرقت من بين أيديهم ، وفى اللحظة التالية مباشرة رأوها تشيع الجنازة وسط الآخرين ، وهى تسير بخطوات بطيئة عليها رزانة وجلال . وأخيراً ، وبسبب تراجع الخادمات المستمر ، صارت خلف برتلده مباشرة . ومنذ هذه اللحظة وهى تسير بخطى بطيئة بطريقة جعلت الأيم لا تشعر بوجودها ؛ ثم تبعتها بضراعة وخشوع مليئين بالعذوبة والحنان ، دون أن يعترضها بعدُ معترض .

واستمرت الحال على هذا النحو حتى وصل الموكب إلى المقبرة ، حيث التف المشيعون فى شكل دائرة حول اللحد المفتوح . حينئذ رأت برتلده تلك التى رافقتها هكذا دون أن تُدْعَى ، فوثبت مترجحة بين الخوف والغضب ، وأمرتها بالابتعاد عن مرقد الفارس الأخير . ولكن المرأة ذات القناع قالت بهدوء : « لا ! » منغضة رأسها . ورفعت يديها وكأنها تدعو بخشوع فى اتجاه برتلده . فتأثرت هذه كل التأثر ، ولم تستطع أن تملك عبراتها ، متذكرة مقدار عطف أندين عليها ، حين أرادت أن تقدم لها عقد المرجان ، وهما على نهر الدانوب . وفى تلك اللحظة أشار الأب هيلمن إلى الحاضرين بالصمت ، داعياً إياهم إلى الخشوع فى صلاةٍ على المَيْت ، وقد بدأ يحثى عليه التراب على هيئة أكمة . فصمتت برتلده وركعت ، وركع الكل ، كما ركع حفارو القبر حينما انتهوا من تنضيد الصفائح عليه .

ولما نهضوا كانت البيضاء الغريبة قد اختفت . وفى الموضع الذى كانت جاثية فيه ، انبثق فوق العشب ينبوع صغير ، ناصع البياض شفاف كاللجين ، وجرى حتى كاد أن يحيط بقبر الفارس ؛ ثم استمر فى الجريان ، وصب فى غدير ساكن كان يمتد إلى جوار المقابر . ويقال فيما يقال إن سكان القرية كانوا ، بعد ذلك بأزمنة طوال ، يشيرون إلى الينبوع ، موقنين تمام اليقين بأنه أندين ، أندين المسكينة المهجورة ، التى كانت لا تزال تضم حبيبها بين ذراعيها الناعمتين .

فريدريش هينريش كارل دلاموت فوكيه

لوحة حياته

١٧٧٧ — ١٧٩٤ : ولد فى ١٢ فبراير سنة ١٧٧٧ فى مدينة برندنبورج Brandenburg على نهر الهافل Havel . وكانت أمه ألمانية خالصة ، أما أبوه فكان حفيداً لأسرة فرنسية الأصل من نورمانديه فى شمال فرنسا ، ذات تقاليد عريقة فى النبالة والحرب ، صارت فى القرن السادس عشر بروتستنتية ؛ فلما ألغى مرسوم « نانت » الذى كان يبيح للبروتستنت فى فرنسا أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية ، هاجرت الأسرة مع من هاجر إلى ألمانيا . وشارك أحد أبنائها فى حروب فريدرش الثانى ، ملك بروسيا العظيم ، فكان قائداً من أعظم قواده ، برز خصوصاً فى معركة لاندسهوت Landshut . وقد تزوج هذا بفرنسية من الفرنسيات اللاجئات ؛ فكان لهما من هذا الزواج ابن ، هو والد شاعرنا ؛ وهذا الوالد قد تزوج بألمانية ، فجاء شاعرنا إذن مزيجا من العنصر الفرنسى المهجن والعنصر الألمانى الخالص . ومع أن هذا الوالد لم يسلك السلك الحربى ، فإن عطف ملك بروسيا ، فريدرش الأكبر ، لم يتخلف عنه ، حتى كان « شبين » شاعرنا فريدرش .

ولد فريدرش إذن فى بيئة فروسية شعارها الله والملك والوطن ، فتشبع بروح الفروسية والعسكرية ؛ ولكن على نحو قد

يثير شيئاً من الابتسام ؛ لذا نعته النقاد جميعاً بأنه يحمل طابعاً دون كيشوتيا .

ونشأ فى قصر مجمع الكهنة الملىء بالأشباح ؛ وتلقى دراسته الأولى فى المنزل ؛ وكان أستاذه الثالث ا . ل . هولزن A. L. Hülsen (المتوفى سنة ١٨١٠) ، الذى كان يعاون فى تحرير مجلة « أتيناؤم » Athenäum التى كان يصدرها اشليجل ؛ وكانت لسان حال الرومنتيك ، ولعل هولزن هو الذى عرّف فوكيه بفشته .

ومن ١٧٨١ — ١٧٨٧ سكن فى الاقطاعية التى اشتراها ذووه بالقرب من پوتسدام Potsdam على نهر هافل ، فى منطقة يحيط بها الماء والخضرة ، مما كوّن الاطار الطبيعى «لأندين» .

١٧٩٤ — ١٨٠٦ : وفى مارس سنه ١٧٩٤ دخل فوكيه الجيش ؛ ولكنه مالبث أن خرج منه إلى الحياة الخاصة بعد حملة الرين . ولكنه ظل مع ذلك لا تستهوى نفسه غير حياة المعسكرات ومهنة الحرب . فظل على صلاته العديدة بإخوانه فى السلاح ؛ وكان يقرأ الكتب العسكرية من غير انقطاع . وتزوج فى مطلع شبابه الأول زواجاً عابراً طائشاً شيئاً ، لهذا لم يستمر طويلا ، فكان طلاق باتفاق الجانبين .

وفى تلك الأثناء بدأت ميوله الأدبية تظهر شيئاً فشيئاً . فعنى أولا بتتبع إنتاج كبار الشياريين المعاصرين ، جيته وشلر .

ولكن لم تكد المدرسة الرومنتيكية تتكون وتعلن برنامجها ، حتى هفت نفسه اليها .

وفى سنة ١٨٠٢ تزوج للمرة الثانية بأرمل تكبره بسنتين كان معجباً بها كل الاعجاب ، لأنها كانت أديبة مثله . فكلاهما كان أديباً خصب الانتاج إلى درجة هائلة : أما هى فقد كتبت كثيراً من القصص ، لقى بعضها شيئاً من النجاح ، ونشرتها تحت اسم مستعار هو « سرينا » Serena وكان زواجاً موفقاً إلى أقصى حد ؛ لذا استمر حتى وفاتها سنة ١٨٣١ .

وفى سنة ١٨٠٤ نشر فريدرش اشليجل أول كتب فوكيه الموسوم بعنوان « تمثيليات درامية » *Dramatische Spiele* .

١٨٠٦ — ١٨٤٣ : ثم عاد من جديد إلى حياة الجيش ، مشاركاً فى حرب التحرير التى قامت بها پروسيا ضد نابليون ؛ فلبى أول نداء بعث به الملك لتحرير بلاد ، وأعطى رتبته العسكرية ، ودخل فى الفرقة المدرعة التى خلفت تلك التى خدم فيها من قبل من ١٧٩٤ — ١٨٠٢ . وقد ساهم ببسالة فى معارك لوتسن Lutzen وباوتسن Bautzen ، كما شارك فى معركة ليپتسج التى انتصر فيها الألمان على نابليون . وفى تلك الأثناء أنشأ عدة أناشيد عسكرية ، لهذا عد من بين شعراء حرب الاستقلال ، الى جانب آرنت Arndt وكيرنر Körner .

وفى سنة ١٨٣٠ اضطر الى بيع ضيعته التى كان يستضيف فيها الكثيرين من أصدقائه الرومنتيك . وارتحل الى مدينة

هلّه Halle ، حيث كان يلقى ، فى دائرة قليلة من المستمعين ، دروساً خصوصية فى التاريخ .

و بعد وفاة زوجته الثانية فى سنة ١٨٣١ ، تزوج من جديد ، أديبة هى الأخرى ، ولكنها أقل انتاجاً بكثير من الأولى .

ولما جلس فريدرش فلهلم الرابع على العرش ، « هـذا الرومنتيكى ذو العرش » ، دعا للاقامة فى برلين من بقى من الرومنتيك : فوكيه وتيك .

١٨٤٣ : وفى ٢١ يناير سنة ١٨٤٣ توفى فوكيه ، وهو فى عالم النسيان الأدبى .

مؤلفـــاته

مؤلفات فوكيه كبيرة المقدار إلى حد هائل ، فثبتها يتضمن ١٧٠ رقما ، بعضها قصص من جزئين وثلاثة ، وهى تشمل كل الأنواع : من شعر ، ومسرح ، وقصص .

الشعر : لا يمتاز شعره بطابع خاص بارز ، وقد طرق فيه كل الموضوعات العامة مثل الحب والصداقة ومظاهر الطبيعـة والدين . وطريقة الأداء فيه لا تمتاز كذلك ، بل يشمل كل أنواع الصور التعبيرية ، ابتداء من الأغانى الشعبية حتى الصور المغالية فى الصـنعة . وقد نشر ديوان شعره *Gedichte* فى ٥ مجلدات من سنة ١٨١٦ — سنة ١٨٢٧ .

المسرح : اتخـذ فوكيه أشخاص مسرحياته من أبطال

الأساطير الشمالية المعروفة باسم «الإدا Edda» ، مجيباً فى هذا دعوة أوجست فلهلم اشليجل الذى دعا كتاب المسرح إلى أن يولوا وجوههم قِبَل الشمال ، قِبل اسكانديناڤا، بدلا من الاتجاه صوب هِلاّس (اليونان) كما يفعل الكلاسيك .

فعالج فوكيه أسطورة « النيبلنجن » فى مجموعة من ثلاث مسرحيات ، ظهرت الأولى منها سنة ١٨٠٨ بعنوان: «سيجورد ، قاتل التنانين» *Sigurd, der Schlangentöter* . وفى سنة ١٨١٠ نشرها مرة أخرى ومعها مسرحيتان أخريان ، بعنوان واحد : « بطل الشمال » *Der Held des Nordens* . وقد مثلت على المسرح بعد ظهورها مرة أو مرتين ؛ ولكنها لم تمثل بعد وفاته .

وفوكيه قد أراد فى هذه المسرحيات المستمدة من الأساطير الشمالية أن يجعل من نفسه مثلما كان اسكيلوس بالنسبة إلى الأساطير الهومرية ؛ وقصد منها خصوصاً أن تكون معبّرة عن أفكار أخلاقية ووطنية . وتمتاز هذه المسرحيات بما فيها من طابع يثير الفزع والرعب إلى حد بعيد ، حتى شعر بهذا فوكيه نفسه ، فقال فى رسالة بعث بها إلى ڤِشته (٢٥/١١/١٨٠٨) ، الذى أهدى إليه المسرحيات : «إننى أنا نفسى قد تولانى شعور بسرٍّ مُقْلِق فى الأتاويه المشئومة لهذه الأسطورة » .

وشخصية سيجورد عند فوكيه تكشف عن قوة حياة هائلة وتسليم بالقدر ، و إخلاص وجرأة . كما أن برونهلده تنم عن عظمة وعزة نفس تثير فينا نحوها الاجلال ، حين قدر عليها ألا تتزوج

من استطاع وحده الظفر بها ؛ فلما لم تعد قادرة على أن تكون زوجة شخص آخر ، صممت على قتل من خدعها ، ثم كَفَّرت عن هذه الخطيئة بالانتحار .

القصص : قصص فوكيه تنقسم إلى قسمين : قصص الخيال ، وقصص البطولة .

قصص الخيال : كثير من قصص فوكيه تشيع فيه روح الإغراق فى الخيال والأسرار ، وهو نوع انتشر فى ألمانيا فى تلك الفترة ، خصوصاً فيما بين سنة ١٨١٠ و١٨٢٠ ؛ وأشهر ممثليه هوفمن . وإلى هذا النوع تنتسب القصة التى بين يديك : « أندين » *Undine* ، وقد ظهرت سنة ١٨١١ . ثم كثير من الأقاصيص التي نشرها سنة ١٨١٥ — ١٨١٩ بعنوان : « أقاصيص» *Kleine Romane* .

قصص البطولة : وهذه تكوّن الجزء الأكبر من إنتاجه فى هذا الباب ، كما هو طبيعى . وعلى رأسها جميعاً قصة « الخاتم السحرى » *Der Zauberring* التى ظهرت فى صيف سنة ١٨١٢ فى ثلاثة أجزاء ؛ ونشرت منقّحة مرة ثانية فى سنة ١٨١٦ ؛ كما نشرت نشرة جديدة فى مجلد واحد سنة ١٨٥٥ ، وتشمل أكثر من ٦٠٠ صفحة . وقد أوحى بفكرة هذه القصة إليه زوجته ؛ فقد دعته إلى وضع قصة عن الأزمنة التي حارب فيها أجداده ، وحظوا بانتصارات فى فرنسا . فتخيل أن ثمة عدة أسر متنازعة

فى أنحاء أوربا ، جاهلين بأصولهم الأولى ، مثيرين الحرب والاضطراب فى أوربا . ثم يكتشفون أنهم ينتسبون إلى أصل واحد ، فيتقرب بعضهم من بعض ، وتزول الخصومة بينهم شيئاً فشيئاً ، ثم يسود السلام ، خصوصاً وهم مسيحيون ، أى ينتسبون إلى دين يدعو إلى الإخاء بين الناس .

ويضاف اليها تلك القصص التى تدور حول أبطال شرلمان بعنوان : « قصص خيالية » *Romanzen* وقد ظهرت سنة ١٨٠٥ ؛ ثم القصص المستمدة من الأساطير الشمالية ، وأهمها : « سنترام ورفاقه » ، سنة ١٨١١ *Sintram und seine Gefahrten* ؛ « ورحلات تيودلف » سنة ١٨١٥ *Die Fahrten Thiodulfs* « والفارس اليدون » سنة ١٨٢٣ *Ritter Elidon* .

مؤلفاته النثرية : « يعقوب بيمه » سنة ١٨٣١ *Jakob Boehme* اليدوهو من خير ما كتب عن هذا المتأله العميق .

وقد حج فوكيه مرتين إلى حرم جيته : الأولى فى فبراير سنة ١٨٠٢ ، والثانية فى سنة ١٨١٣ إبان عودته من معركة ليبتسج ، فاستقبله جيته بود وتقدير . فكتب فوكيه وصفاً لهاتين الزيارتين فى رسالة صغيرة فى ٧٠ صفحة بعنوان : « جيته وأحد المعجبين به » *Goethe und Einer seiner Bewunderer* ، وقد نشرها سنة ١٨٤٠ .

وله مذكرات عن حياته نشرها فى سنة ١٨٤٠ بعنوان : « تاريخ حياة البارون فريدرش دلاموت فوكيه . كتبه بنفسه »

هلّه ، سـنة ١٨٤٠ فى ٣٦٨ صفحة *Lebensgeschichte des Baron Friedrich de la Motte-Fouqué.* Aufgeizchnet durch ihn selbst.

ومجموعة رسائل نشرت فى نشرات مختلفـة ، كما نشرت بعض الرسائل المرسلة اليـه ، نشرها هتسك J. E. Hitzig وه . كلتكه H. Kletke وأرملتـه بعنوان : « رسائل إلى فريدرش بارون دلاموت فوكيـه » ، برلين سنة ١٨٤٨ . *Briefe an Fr. Baron de La M.*

نشرات

نشرت له إبّان حياته طبعة مختارة من مؤلفاته فى ١٢ مجلداً سنة١٨٤١ بعنوان « مؤلفات مختارة» *Ausgewählte Werke* . ونشرت له بعد هذا طبعات مختارة عديدة منها المجلد الخاص به فى مجموعة الأدب الألمانى الوطنى *Deutsche Nationlal Literatur* التى يشرف على إخراجهـا كرشنر *Kürschner* ، المجلد رقم ٤٦ ، سنة١٨٩٣ . ولهذه النشرة مقدمة تعد أهم دراسة كتبت عن حياة فوكيه ومؤلفـاته ، كتبها ماكس كوخ *Max Koch* ، وتشمل ١٢٦ صفحة من هذه النشرة التى تحتوى على : «أندين» ، وما يقرب من عشر قصة « الخاتم السحرى» ، والمسرحية الأولى من ثالوث « بطل الشمال » ، و بعض أشعار .

وأوسع من هذه النشرة تلك التى أخرجتها المكتبة الذهبية الكلاسيكية *Goldene Klassiker Bibliothek* و يشرف على

إخراجها الناشر همپل Hempel ، وقد ظهرت فى سنة ١٩٠٨ فى ثلاثة أجزاء تشتمل على بعض الأشعار ، وكل ثالوث « بطل الشمال » ، وكل «الخاتم السحرى» وثلاث أقاصيص وحكايات بجانب « أندين » ؛ وقد كتب التصدير العام والتعليقات فلتر اتسيزمر Walther Ziesemer .

أما عن فوكيه و « أندين » فراجع ، إلى جانب ما سبق ذكره :

L. JENTHE : *Fouqué als Erzähler*, 1910. (Breslauer Beiträge zur *Literaturgeschichte*, B. XXI, 165 S. in-8°);

KÖNIGS : *Erläuterungen zu Fouqués Undine*. Leipzig.

W. PFEIFFER : *Ueber Fouqués Undine*. Heidelberger-Dissertation, 1903;

JULIUS HAUPT : *Elementargeister bei Fouqué, Immerman und Hoffman* Leipzig, 1923;

LA MOTTE-FOUQUÉ : *Ondine*, traduit et préfacé par J. Rouge, Paris, 1933.

ولهذه الترجمة مقدمة كبيرة ممتازة فى ٤٧ صفحة

منهاجنا فى الترجمة

ترجمنا النص الألمانى بحروفه ، إلا فيما اقتضاه جمال الأسلوب. والقصيدة التى وردت ترجمتها فى ص ١٠٥ إلى ص ١٠٧ قد ترجمناها كما هى ، ووفقاً لنظام قوافيها فى الأصل ، وإن كان قد حدث عن ذلك تداخل بين الأبيات غير مألوف فى الشعر

العربى التقليدى ، مما يجعل القصيدة تجرى متصلة من أول بيت إلى آخر القصيدة ، وهذا كان لا بد منه لأنها تعبر عن قصة متصلة . وكذلك ترجمنا الاهداء نظماً كما هو فى الأصل .

تصويب أخطاء مطبعية

ص ٣٥ ، س ٤ : الروحُ : الروحَ ؛ ص ٣٦ ، س ١٥ : الجميلْ : الجميلِ ؛ ص ٤٢ ، السطر الأخير : قُسماتها : قَسِماتها ؛ ص ٤٣ ، س ١٨ : يُحْزِ : يَحِزْ ؛ ص ٦٠ ، س ١٠ : ملحمة : ملحمة النيبلنجن ؛ ص ٨٣ ، السطر الأخير : الآتىَ : الآتىُّ ؛ ص ١٠٦ ، س ٨ : أنتِ : أنتَ ؛ س ٨ : الزهرُ : الزهرِ ؛ ص ١٢٧ ، س ٢ : الناس : الفارس

الروائع المائة

العشر الأولى :

خلاصة الفكر الأوربى

ظهر منها :

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الخضرى